

اربعون عاماً على العدوان

بور سعيد ... أيام المقاومة

كمال القلش



كتاب الأهالى

رقم ٥٩

رئيس الحزب : خالد محيى الدين

رئيس مجلس الإدارة : لطفى واكد

مجلس التحرير: د.إبراهيم سعد الدين/ أبو سيف يوسف/حسين عبد الرازق/ د.عبد العظيم أنيس/ عبد الغفار شكر/ د.محمد أحمد خلف الله

الإدارة والتحرير: ٢٣شارع عبد الخالق ثروت شقة ١٨ القاهرة ج.م.ع

ترسل جميع المراسلات باسم رئيس التحرير

الإعلانات: يتفق بشأنها مع الإدارة

الأعداد السابقة: توجد نسخ محدودة من الأعداد السابقة من السلسلة ترسل لمن يطلبها خارج القاهرة أو خارج جمهورية مصر العربية بالبريد المسجل ويحسب سعر الكتاب على أساس أن الجنيه يعادل (دولار) أمريكياً ويضاف جنيه مصرى داخل مصر على ثمن الكتاب نفقات البريد كما يضاف (دولار) واحد خارجها إلى الثمن وتحول أثمان الكتاب بحوالة بريدية باسم الأهالى.

كتاب الأهالى سلسلة كتب شهرية تصدرها جريدة الأهالى- حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى-مصر.

أما وقد صمتت مدافع الأمة عن الدفاع، وحول العدو نيران مدافعه إلى جبهة الوعى والانتماء لقد كان لابد وأن يصدر كتاب الأهالى ليكون بعض جهدنا المتواضع فى المعركة التى تدور على جبهة العقل ليساهم فى إعادة بناء الجسور المنهارة بين الطليعة والشعب وبين المواطن وبين الوطن والأمة وبين هؤلاء جميعاً والكون الذى نعيش فيه.

ولأننا نعيش فى عصر ثورة الاتصالات الذى يؤدى تدفق معلوماته إلى تشوش فى اليقين فإن حاجتنا إلى العودة للتبشير بالبديهيات وإعادة إحياء الذاكرة الوطنية لاتقل عن حاجتنا إلى التعمق الذى يحمى اليقين لا الذى يشوش عليه.

وإذا كان منطق الحركة السياسية اليومية يحتمل المساومة والوسطية فإن جوهر دور اليسار على صعيد الوعى والانتماء هو الهدم والبناء ذلك أن الأمر هنا أمر تكوين وتأسيس يتجاوز ضرورات الحاضر وقيوده إلى آفاق المستقبل وأحلامه.

كتاب الأهالى

ثقافة الهدم والبناء

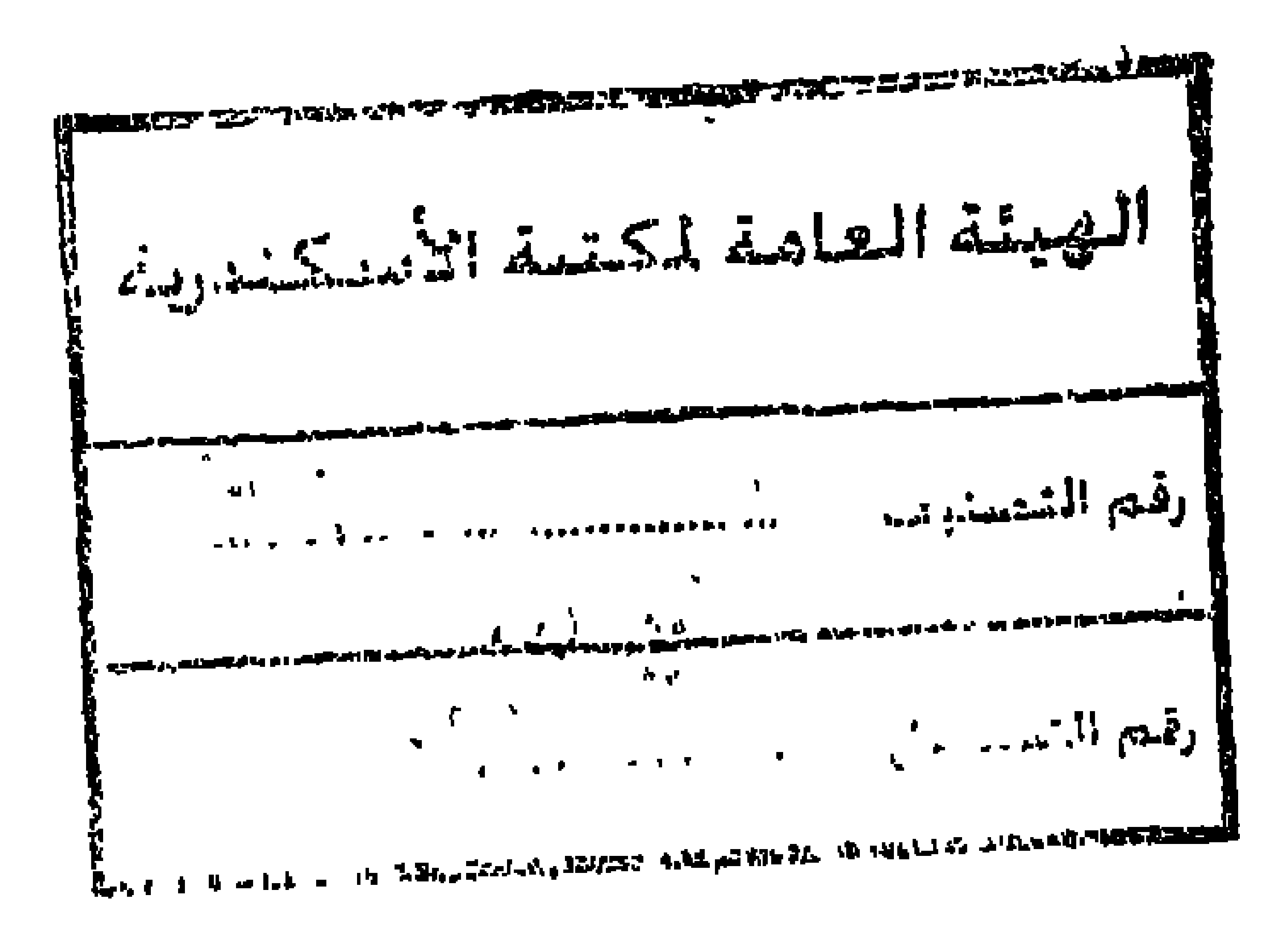
رئيس التحرير: أمينة شفيق

كتاب الأهالى

أربعون عاما علي العدوان
بورسعيد .. أيام المقاومة

سكرتير التحرير: عادل بكر

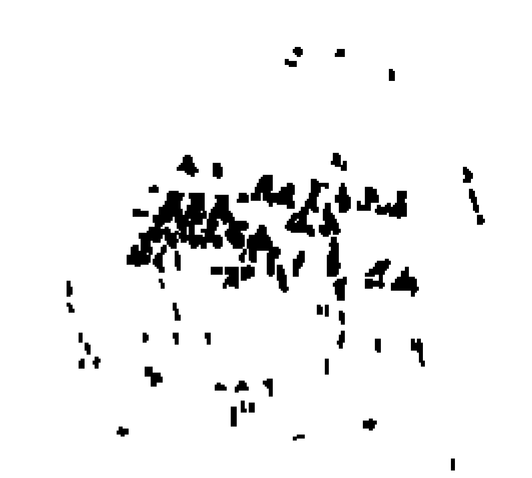
أعمال الصف والتوضيب الفنى:
بوحدة أجهزة الماكينتوش بمؤسسة الأهالى/ ٢٣ شارع
عبد الخالق ثروت - القاهرة /ت:٣٩٢٢٣٠٦-٣٩٢٢٤٠٨.



كمال القلش

أربعون عاما على العدوان

بورسعيد .. أيام المقاومة



الإهـــــداء

إلى

إبراهيم هاجوج وزملائه وكل الذين شاركوا
في مقاومة وعدوان ١٩٥٦ على بورسعيد

في بداية الستينيات تعرفت على الصديق إبراهيم هاجوج. كان شابا صغير السن آنذاك، وكانت تجربته هو وزملاؤه في المقاومة الشعبية في بورسعيد ١٩٥٦ ما تزال حية ومتقدة في داخله، وفي سجن الواحات ـ حيث تزاملنا ـ اتفقنا على أن أتولى تسجيل تجربته.

كنا نقضي ساعات كل يوم معا، وعلى مدى شهور أمطرته بمئات الأسئلة وهو يجيب بطريقته عما حدث. وسجلت هذا كله في كراس صغير احتفظت به، ونجحنا في تهريبه خارج السجن.

وعندما حلت ذكرى أربعين عاما على العدوان الثلاثي على بلادنا وعلى المقاومة الباسلة لشعب بورسعيد عدت إلى الكراس الصغير فوجدت ما فيه مذهلا، وبدت الأحداث والمقاومة وأساليبها حية كأنما حدثت بالأمس.

وذلك على الرغم من التغيرات الضخمة التي جرت في مصر وبورسعيد نفسها، والتي تحولت إلى مدينة حرة تسعى للتجارة والكسب بعد كل ما عاشته من آلام وتضحيات.

لقد حدد العدوان الثلاثي لنفسه ثلاثة أهداف: أولها إعادة احتلال قاعدة قناة السويس من جديد من قبل القوات الإنجليزية التي أجبرت على الجلاء عنها في يونيو ١٩٥٦.

وثانيا إلغاء تأميم القناة وعودتها إلى السيادة الأجنبية كما كانت عليه الحال قبل قرار جمال عبدالناصر بتأميمها. وثالثا هزيمة ثورة يوليو واعتقال قادتها ومحاكمتهم وربما نفيهم، مثلما حدث قبل ذلك بأكثر من نصف قرن مع قادة الثورة العرابية. باختصار كانت إرادة المعتدين هي إعادة البلاد إلى ما كانت عليه

قبل ثورة ١٩٥٢ وإعادة عجلة التاريخ إلى الوراء.

وبالطبع لم يتحقق شيء من هذه الأهداف وخاب كيد المعتدين، فبقيت قناة السويس كما أرادها عبدالناصر مصرية، وتألقت ثورة يوليو وازداد إشعاعها، وازداد شموخا زعيم هذه الثورة وصارت مصر قوة سياسية لها أكبر التأثير والنفوذ من المحيط للخليج، كما صارت بورسعيد رمزا للمقاومة.

* * *

ورغم وضوح هذا الأمر وضوح الشمس في رابعة النهار، إلا أن عجلة الإعلام الرجعي العتيد لم تكف لحظة عن قلب الأوضاع وتزييف التاريخ وتحويل نصر ١٩٥٦ الباهر إلى هزيمة(!!) ولم يقتصر الأمر على اليمين المصرى أو اليمين العربى المعروف بحقده غير المحدود على ثورة يوليو، وإنما شاركهم فى ذلك عدد من الليبراليين انضمت إليهم مؤخرا أعداد من الوطنيين واليساريين وأصبحنا نواجه «مهزلة عقلية».

لدرجة أن النظام الحاكم نفسه الذى يزعم أنه يستمد شرعيته من ثورة يوليو بدا مقتنعا بذلك، ولم يعر مناسبة مرور أربعين عاما على العدوان أدنى اهتمام، بل إن مصر كانت الوحيدة من بين جميع الأطراف المشاركة فى حرب ١٩٥٦ التى لم تحتفل بهذه المناسبة، اللهم إلا عدة سطور ألقاها نيابة عن رئيس الجمهورية محافظ أو وزير فى احتفال لم يستغرق أكثر من نصف ساعة فى إحدى العواصم الإقليمية!

أما المهزومون الحقيقيون فقد احتفلوا بذكرى مرور أربعين عاما على هذه الحرب احتفالا كبيرا، اعترفوا فيه بحماقة زعمائهم فى

ذلك الوقت ودوافعهم الحقيقية، وشاركت فى هذا كل وسائل الإعلام فى فرنسا وبريطانيا وصدرت مئات الأبحاث والدراسات والكتب، واستخلصوا دروس التجربة بعد مضى كل هذه السنين.
لقد احتفل المهزومون بالحدث وخاف المنتصرون الاحتفال بانتصارهم!

* * *

فى ذلك الزمن لم يكن أحد يعرف ما الذى يخبئه الغد وما الذى سيولد من رحم هذه الأحداث، بل كنا على قناعة كاملة بأننا فى مصر نمر بمخاض التحرر الوطنى، وكنا على يقين تام من أننا نعيش هذه المرحلة التى ستفضى بالضرورة إلى الاشتراكية. كان هذا يقيناً لا شبهة فيه فى تلك السنوات، وقد نضجت ثورة يوليو على هذا اليقين واكتسبت ثقتها بنفسها وبدورها المحلى والعالمى.
وفى هذا السياق جاءت الحملة الاستعمارية على مصر عام ١٩٥٦ ونجحت مصر فى صد العدوان وطوت صفحة أكبر دولتين استعماريتين فى العالم القديم انجلترا وفرنسا، كما أفسحت معركة بورسعيد الطريق لزعامة الدولتين العظميين الجديدتين على العالم واللذين ورثا مهام ومسئوليات إدارة وقيادة العالم.
وقد خلد هذا دور بورسعيد فى تاريخ العالم كله باعتبارها اليد التى طوت إلى الأبد صفحة الاستعمار القديم.

* * *

ولكن الأمور لا تسير كما تشتهى السفن، فقبل أن تنتهى حقبة الستينيات بدأت ملامح عدوان جديد تظهر، وبدأ ضرب حركات التحرر الوطنى بإعادة ضرب مصر بإحكام عام ١٩٦٧، تلاها

ضرب دول كثيرة فى آسيا وأفريقيا جنبا إلى جنب مع احتواء دول أخرى وزعزعة النظام الاشتراكى نفسه فى الاتحاد السوفيتى والدول الدائرة فى فلكه.

وكانت حقبة النفط فى السبعينيات وما تلاها تضخ الأموال لكافة القوى التى اضطلعت بتنفيذ هذا المخطط المنشود.

ولن نكتب فى مقدمة هذا الكتاب تاريخ ما جرى لهذا العالم خلال الأربعين عاما الماضية، التى شهدت نهوض حركات التحرر الوطنى وأفولها، وتصاعد قوى المعسكر الاشتراكى وانهياره.

فقد أصبحت الأمور اليوم أكثر وضوحا أمام حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث، وعليها تقع مسئولية إعادة تقييم برامجها من جديد وصياغة تحالفاتها، كما أن التيارات الاشتراكية فى العالم كله تفحص من جديد توجهاتها وتكتشف مثالبها وهى تعيد ترتيب أوراقها وأفكارها وقواها لتبدأ حقبة جديدة من النضال من أجل حياة إنسانية أفضل.

* * *

يعنينا من هذا كله أننا نحتفل اليوم ـ بالرغم من الذين زيفوا وعينا ـ بإصدار هذا الكتاب المتواضع شاهدا على انتصارنا ومقاومتنا وحرصنا على استقلالنا.

ونحتفل أيضا بدور بورسعيد الخالد الذي إفتدي مصر ، كما نحتفل بشعب بورسعيد المناضل الذي جاء ذكر بعض أبطاله فى هذا الكتاب وعجزنا عن حصر كل الأبطال العظام الذين شاركوا فى المقاومة والنضال ولم نتمكن من تسجيل دورهم، فلا يوجد كتاب واحد يستطيع أن يحيط بكل أبطال هذا الحدث الفريد.

نحتفل الآن ببورسعيد وشعب بورسعيد وبما قاموا به من نضال (لم يدركوا تماما أبعاده أيامها) هذا النضال الذى كان يد التاريخ التى طوت صفحة العالم القديم كله وأظهر صفحة جديدة فى تاريخ البشرية.

لقد هزمت بورسعيد قوى الاستعمار القديم وطوتهم وأنهت دورهم إلى الأبد، ومهدت رغما عن كل شيء للقوى الجديدة أن تظهر وتلعب دورها الذى مازالت شعوب العالم - ومن بينها مصر - تحاول محاصرته والذى عرف بالاستعمار الجديد.

هذا الكتاب لا يؤرخ لهذا كله، وإنما يسجل فقط ما حدث فى الصفحة الأخيرة من المعركة النهائية التى هزم فيها الاستعمار القديم ويرصد ويسجل دور شعب بورسعيد ومقاومته الباسلة منذ لحظة احتلال المدينة، بل وقبل احتلالها حتى انسحاب المحتلين فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦.

تلك الأيام المصرية التاريخية المجيدة.

كمال القلش

الحريق

فى ٢٩ أكتوبر أعلن الإنذار البريطانى لمصر ، وفى اليوم التالى حلقت طائرات العدو على ارتفاع شاهق فى سماء بورسعيد ، وقامت الطائرات المعادية بقصف القاهرة والمطارات ومناطق فى محافظة الشرقية وأبى زعبل - وبعد ذلك تركز هجوم الطائرات على الأهداف العسكرية فى بورسعيد.

الغارات متواصلة ومستمرة ، ومدفعيتنا تتصدى لها بجوار مبنى القناة، وبجوار تمثال ديلسبس وحى الجميل وبورفؤاد ؛ استمر قصف الطائرات والغارات وحطمت طريق "المعاهدة" وطريق القناة ومحطة السكك الحديدية وبذلك عزلت بورسعيد ولم يعد هناك طريق يصلها بباقى المدن المصرية غير بحيرة المنزلة.

فى الأيام الأولى شكل الأهالى لجان المقاومة الشعبية والحرس الوطنى واللجنة العليا للمقاومة وتجمعت المقاومة فى الكبائن والأحياء الشعبية.

عجز العدو عن احتلال شبر من بورسعيد حتى ٤ نوفمبر وكان عدد ضحايا الغارات كبيرا ، الشوارع مكتظة بالناس دائماً، شارع عبادى ، منطقة المحافظة، شارع ٦ ببورفؤاد والمناطق القريبة من الكبائن ، هبطت دفعتان من الدمى على هيئة جنود المظلات لكشف أماكن تجمعات المقاومة وتحريكها فى اتجاهات غير صحيحة.

نجحوا في الهبوط بالمظلات في الملاحة وأبادوا عددا كبيرا من الفدائيين وأعضاء لجان المقاومة بالمدافع وبمدافع الطائرات التى كانت تحلق على ارتفاعات منخفضة جدا ، ومع ذلك عرقلت المقاومة الشعبية تقدمهم، وكانت بوارجهم الحربية وحاملات

الطائرات تقف بالقرب من شاطئ بورسعيد ، الطائرات تضرب المدينة وتعود إلى الحاملات فى البحر ببساطة . تساءل الناس أين طائراتنا ، وفجأة رأوا عدداً من طائراتنا تتصدى للطائرات المعادية وتسقط منها طائرتين فى معركة استغرقت عدة دقائق، هاص الناس فى الشوارع وهم يشاهدون المعركة فى السماء، عادت الغارات وتصدت لها المدفعية بجوار مبنى المحافظة وفى شارع عبادي. سقطت طائرة ثالثة. صفق الناس.

بدا أن العدو لم يكن مقدرا المقاومة العنيفة للمدفعية والمقاومة الشعبية فبدأ يحرق المدينة من الجو مع التركيز على شاطئ البحر حيث تتجمع المقاومة فى الكبائن وخلفها. وذلك بعد أن أفسدت المقاومة خططهم لإنزال جنود من البوارج الحربية على الشاطئ.

استمر مدفع بجوار القناة يطلق نيرانه على الطائرات وكان آخر مدفع يسكته العدو ، ظل يُضرب بالقنابل من الجو لمدة يومين وأسقط وحده طائرتين ، وكانت الطائرات تطير على ارتفاع منخفض حتى تكاد تلامسه لتبيد طاقمه بالمدافع الرشاشة . تجمع حوله عدد كبير من الناس واشتركوا مع طاقم المدفع فى المقاومة ، قتل القائد ، وأبيد الطاقم ولم يبق غير جندى واحد استمر حتى أصيب بعد أن ضربوه بقنبلة مباشرة أصابته، تجمع الأهالى حوله وكانوا يناولونه الذخيرة وهو مصاب وعينه تدمى .. ذهبوا به إلى المستشفي ، فقد بصره ، ورقى إلى رتبة ملازم ثان.

كان العدو فى الأيام الماضية لا يضرب المساكن أو الأهالي، غير العدو تكتيكه، أصبح يضرب بلا تمييز ، غارات طوال اليوم لا تنقطع لحظة، السماء ممتلئة بالطائرات المغيرة بشكل متواصل ،

قبل أن تعود يكون غيرها قد جاء حتى لا ينقطع ضرب المدينة لحظة واحدة في محاولة لإسكاتها وإخضاعها وتدميرها، حرقوا حي المناخ بالقرب من الجبانة، وهو حي مزدحم جدا بالسكان، بيوته خشبية يسكنها العمال والصيادون والحرفيون، وكان هذا الحي أحد مراكز المقاومة، حرقوا حي الجميل حيث تتجمع أيضاً المقاومة الشعبية، وقبل أن يأتي المساء كانت بورسعيد كلها شعلة من النيران.

الناس يهربون من الحريق ويفرون من البيوت المشتعلة بالنيران ويتجمعون في قلب المدينة، نساء بملابس النوم ورجال بملابسهم الداخلية، الأطفال على الأكتاف ، امرأة عجوز يحملها ابنها ويهرب بها من وسط النيران، العائلات حاصرتها النيران داخل البيوت وكانوا يقفون في الشرفات ويصرخون، أم تلقى بابنها من الشرفة لتبعده عن النار ثم تلقى بنفسها وراءه، الناس يجرون في الشوارع التي تحترق ويبحثون عن بقايا أسرهم مجموعات من الناس يجرون في اتجاه بحيرة المنزلة ليهربوا من المدينة المحترقة، المشكلة هي وسائل النقل (اللنشات)، مجموعة من الشباب ومنهم رئيس نقابة سائقي اللنشات اتجهوا إلى قناة السويس ومعهم (عربات كارو) ليحملوا عليها اللنشات من القناة وينقلوها إلى بحيرة المنزلة لتنقل الناس خارج بورسعيد.

كان القصف لا يتوقف على القناة، الذهاب إلى هناك انتحار، كان عملا بطوليا أن ينقلوا عشرات اللنشات من القناة على عربات (الكارو)، قتل في هذه العملية عشرات الناس وقتل أيضاً البطل علي شلبي رئيس نقابة سائقي اللنشات.

الطائرات تطير على ارتفاع منخفض وتضرب الأهالى بمدافعها الجانبية.

***

على محطة بحيرة المنزلة تجمع آلاف الناس، اللنش لا يمكن أن يصل إلى رصيف المحطة ويقف بعيدا خوفا من اندفاع الناس الشديد إليه. كان اللنش يقترب فقط ولمدة دقائق ثم يبتعد سريعا، وكان الناس يقفزون فى مياه البحيرة، وأثناء ابتعاده يخوض الناس فى مياه البحيرة ويحاولون اللحاق به، غرق عدد كبير فى هذه المحاولات،الطائرات تحلق على رؤوس الركاب، والناس يميلون لتفادى هجوم الطائرة، ولا يستطيع اللنش الاحتفاظ بتوازنه فينقلب وتغرق حمولته .

المئات ماتوا غرقا من التزاحم للحاق باللنشات وغيرهم غرقت بهم بعد أن ركبوها الصراخ يملأ البحيرة، والأذرع الغارقة ممتدة تبحث عن النجدة، وعدد من الواقفين مدوا أيديهم لمساعدة الغرقى ، كل إنسان يحاول النجاة بجلده، كنت أقف أنا وأحمد شوقى المرجاوى على رصيف محطة المنزلة نحاول إنقاذ مايمكننا إنقاذه، ووقف بجوارنا أحد الجنود ، وكنا نحن الثلاثة نمد أيدينا لمساعدة الغرقى وفجأة مد أحد الغرقى بندقيته البارزة فوق الماء، الجندى كان أسبقنا ، أمسك بطرف ماسورة البندقية وشد الغريق منها، وفجأة سمعنا صوت طلقة، وصرخ الجندى ثم انقلب فى مياه البحيرة كان الغريق يمسك البندقية من الزناد ، وعندما جذبه الجندى من ماسورة البندقية ضغطت يد الغريق على الزناد ، فانطلقت الرصاصة إلى بطن الجندي، نظرنا لأنفسنا أنا وشوقى

المرجاوى فى أسى وحسرة..

***

قابلت سعد عبد اللطيف ، لاحظنا نشاطاً مريبا لطابور خامس يشيع فى المدينة إشاعات كاذبة خطيرة، ويضلل الجماهير بإدعاء نزول العدو في أماكن معينة فى الوقت الذى يقوم فيه العدو باحتلال أماكن أخري، وكان الأعداء فى ذلك الوقت من صباح ٥ نوفمبر قد احتلوا أماكن في الرسوة والجميل والملاحة بجنود البراشوت وحرقوا أقساما هائلة من المدينة واكتشفوا بعض تجمعات المقاومة وأحرقوا الكبائن وأبادوا القوات الموجودة هناك. والناس يتجمعون ليقاتلوا العدو فى الأماكن التى هبط فيها وكنا جميعا نفتقر إلى السلاح.

***

فجأه قابلنا ضابط شاب اسمه(منير موافى) ومعه عربة نقل معبأة بالذخيرة والبنادق، أفرغ عربة السلاح فى شارع كسرى وقال للناس(السلاح أهه خذوه)- هجم الرجال والنساء والأطفال فى صراع شديد ليأخذ كل منهم قطعة من السلاح، وعاد الضابط مرة أخرى بعربة ثانية محملة أيضا ، وكرر العملية.. ثم أخذ الناس معه واتجه إلى محطة السكك الحديدية وكانت هناك عربات محملة بالسلاح ولا أحد من الأهالي يعلم عنها شيئا واندفع الناس يحطمون أقفال العربات ويفتحونها ويوزعون السلاح على أنفسهم، وبعد ساعة واحدة كان شعب بور سعيد قد تسلح كله الرجال والنساء والأطفال، الجميع بلا استثناء أصبح مسلحا.

الناس يتجمعون فى الأحياء وهم مسلحون ، وأقاموا المتاريس

فى الشـــوارع وهم يقـولون (لو جـدعــان الإنجليـز يجـوا عندنا دلوقت)- كل هذا كـان يحـدث والعـدو يـواصل حرق المدينة من الجو والشوارع والبيوت تحترق.

ذهبت أنا وشـوقى لمبنى الاسـتـعـلامـات لنأخـذ سـيـارة من سيـاراتهم لنتعقب ما يقوم به الطابور الخامس ونفسده ، ولتعبئة الأهالي وتـوجيـهـهم إلى أمـاكن تجـمعـات العدو، ولكن مـوظفى مـصلحة الاسـتعلامـات رفضـوا وقـالوا ليس لدينا تعليـمـات، كان في نيتنا أن نأخذها بالقوة ولكننا لم نعثر على سياراتـهم، وجدنا سيـارة مـن سيـارات مـصلحـة السـواحل وهى (جيب مكشـوفـة). ناقـشنا السـائق وأقنعناه، وبدأنا نتـحرك بالسـيارة كنا نقف في الشـوارع أنا وسعـد عبـد اللطيف ونخطب عن الوطن المهـدد ، لا تطلق الرصـاص بدون هدف، كل رصاصة بإنجليزي، لن تسمح بأن يمر العدو، الانجليز إذا دخلوا البلد سيهتكون أعراضنا ، سنقاتل سنقاتل ولن نلقى السلاح.

الناس يتـجمعـون حول العربـة، ونوجهـهم إلى أمـاكن تجـمعـات العدو فى الملاحة والجـميـل وساحل بورسعيـد ، أوقـفنا سـيـارات النقل ونقلنا فـيهـا الناس المسلحين إلى أمـاكن العدو. كـان الناس يتزاحمون للذهاب إلى العـدو وهم يقـولون (حنمـوت حنمـوت ياللا نموت رجاله..)

كنا نتـحـرك من مكان لآخـر نوجـه ونخطب ونكـتـشف أشـيـاء غريبـة، فى شارع كسرى مثلا كان يقف شخص فى وسط الناس ويقول (الحقوا الإنجليز نزلوا فى شارع الحميدي)، وشارع الحميدى لا يبعد عن شارع كسرى أكثر من عشرين مترا فيثير بذلك الذعر

بين الناس وينطلق الرصاص بدون هدف ويسقط القتلى من الأهالي برصاصنا ، كانت مهمتنا أن نجعل الناس يسيطرون على أنفسهم ، ونتعقب هذه الاشاعات المدمرة..

لم نكن نشعر بما نفعله، كانت نفوسنا مشحونة بعوامل مختلفة، نحن نسير بعربة مكشوفة ومن الممكن لأية رصاصة طائشة أن تقتلنا ، وبالطبع كنت خائفا ، ولكن لابد أن نواصل، فكرت لحظة في الموت، وفي أسرتي التي تحتاجني بشدة وتعتمد علي ، فكرت في حياتي نفسها فأنا شاب لم أقرب امرأة في حياتي وفي بداية العشرينيات من عمري، وندمت وتضايقت عندما تذكرت وأنا داخل السيارة ووسط الرصاص أن أمي رفضت فكرة زواجي من نوال ، كل هذا كان يدور في ذهني في لحظة واحدة ويختفي وسط دوامة الخطب والمعركة.

وكان لابد أن نواصل بين لحظات الخوف ومشاعر الأقدام والمغامرة والبطولة، خاصة أن الناس كانوا يتوجهون بالسؤال دائما نحوي (نروح فين يابوخليل ، نعمل إيه) كان هذا يدفق في داخلي مشاعر تهزم كل تردد.

في شارع الحميدي ونحن نخطب في الناس المتجمعة حولنا ، هاجمت سيارتنا طائرة تقصدنا بالتحديد، دخلنا في حارة ضيقة، وقفزنا من السيارة ودخلنا أحد البيوت، وسمعنا بعد لحظة دوي انفجار وصراخ وأصوات تتمزق من الألم، عدنا بعد لحظة وجدنا الطائرة قد قذفت العربة بالقنابل وحطمتها تماماً وعدد من الناس قد قتلوا وبعضهم أصيب ، وجننت، هل العربة هي السبب في قتل هؤلاء الناس، هل أنا السبب فيما حدث، وبعد أعوام طويلة

هدأت وأنا أقرأ فى أحد الكتب التى كتبها الإنجليز عن العدوان عن دور العربة التى كانت تقود المعركة من شارع إلى شارع فى أحلك يوم قاسته بورسعيد.وكانت قد نشرتها أيضا جريدة التايمز البريطانية

***

أصدرنا كل ساعة منشورا لتوعية الناس، ولشرح أهداف العدوان والدفاع عن عبد الناصر والواجبات الملقاة على عاتقنا وبيانات عن تحركات العدو كل هذا بالآلة الكاتبة، كتبنا على الجدران حافظ على سلاحك ولن يمر العدو إلا على جثثنا.

كل هذا كان يدور من الصباح الباكر حتى عصر يوم ٥ نوفمبر ، القنابل تنهمر، الذعر والفزع والمدينة تحترق، مئات الجثث ملقاة فى الشوارع مضرجة، الناس يحملون الجثث وينقلونها على عربات الكارو.

اختلطت قوات الجيش بالأهالى وتركت معسكراتها وكنا نرى المدافع الثقيلة موزعة تحت (البواكي). الجنود بملابسهم الصفراء واقفين فى الشوارع مع الناس- الناس جميعا يتحركون وينقلون الجرحى ويوفرون عربات النقل ويحضرون طعاما من البيوت للجنود المدافعين فى الشوارع ، والرصاص لا يتوقف، ولا يمكن أن تحمى نفسك من الرصاص طالما أنت تتحرك.

كان سعد عبد اللطيف يشيرني حين يتذكر شيئا مضحكا ويحكيه لى ونحن نجرى تحت (البواكي)، انفتح أحد البيوت وكنا سائرين وخدنا فى شارع الحميدى وأطلت من الباب امرأة وقالت: (تعالوا هنا، انتو رايحين فين: (داموت شبابكم حرام عليكم،

ادخلوا ، تعالوا) قلنا فى نفس واحد: متشكرين جدا .. وواصلنا السير.

***

كان الجرحى العائدون من سيناء يسندون ظهورهم إلى الجدران، والأهالى يجمعون لهم الطعام والمياه ويضمدون لهم جراحهم ويدعونهم لدخول البيوت، وبقية الجنود واقفين بمدافعهم يدافعون عن بورسعيد ، والحرائق تنتشر بسرعة مذهلة، والناس موزعون بين صد العدو وإطفاء الحرائق، نجح الأهالى بسرعتهم ومبادرتهم وحماسهم فى إطفاء عدد كبير من الحرائق وتفادى خسائر هائلة، كنت ترى مجموعة من الناس فى حى من الأحياء التى تحترق تندفع بجرادل المياه والصفائح وشكائر الرمل ، وتسمع أحد الناس يصيح: (الحقوا النار وصلت لبيت الحاج محمود ، حرام ياجماعة، دا "شوار" ابنته موجود فى البيت ولسه ما فرحتش بيه!!) فيندفع الناس بجنون لإطفاء الحريق.

كل إنسان يساعد بأقصى مالديه وهو يجرى ويلهث للإطفاء وكأنه يطفئ حريقاً فى منزله الخاص، وكأن البيوت جزء منهم، وكان رجال الإطفاء يجرون بخراطيمهم إلى بحيرة المنزلة ليشفطوا منها المياه ويرشوها على البيوت ، ذلك لأن المواسير كانت قد خربت بقنابل الطائرات.

كانت مصلحة الإحصاء قد أرسلت من القاهرة عددا من موظفيها ليقوموا بإحصاء السكان فى بورسعيد قبل العدوان بأيام، وحوصر الموظفون فى بورسعيد بالعدوان، وأخذوا يبحثون عن طريقة للخروج من المدينة، وجمعوا حقائبهم على عربة

وساروا خلفها يخترقون المدينة وكان منظرهم غريبا وسخيفا ، مجموعة من الشباب يتركون المدينة والناس كلها مشغولة بالدفاع عنها ، لكن الأهالى لم يتركوهم وانهالوا عليهم بالشتائم ، وبصقوا عليهم، ورغم هذا واصل أغلبهم السير بتنطع شديد.

***

دخلت مقهى قريباً من شارع البحر لألتقى ببعض زملائى ، ولم أكد أجلس حتى دخلت علينا مجموعة من الجنود الإنجليز شاهرين السلاح، وقفنا كلنا ونحن مفاجئين لدرجة هائلة، فلم نكن نتصور أنهم قد وصلوا لهذه المنطقة ، وكان يجلس بالقرب منا شاب بورسعيدى ضخم البنيان من عمال البحر، لم يقف ظل جالسا على مقعده يرشف من قهوته ، كنا جميعا ماعداه تقف مد هوشين وننظر بذهول ونترقب ، كان من الممكن أن نخرج من المقهى أو نجرى ولكننا أردنا أن نعرف ما الذى سيحدث . صوب الإنجليز بنادقهم نحو الشاب الجالس فى هدوء وقال أحدهم: «ستاند أب قف» ، واصل العامل الشاب نظرته المتحدية لهم وظل جالسا يشرب قهوته دون أن يهتز، صمت المقهى لحظات هائلة، ومزق الصمت الرصاص المنطلق من فوهات البنادق و الذى اخترق ومزق جسد الشاب، ووقع على الأرض- أدركنا فى الحال أن المدينة قد احتلت بالفعل ، وأن ما رأيناه هو الاحتلال شخصيا!

الظلام يخيم على يوم ٥ نوفمبر، والليل يكدس الظلام فوق المدينة، وصوت الرصاص والقنابل والمدافع لا يخفت ولو للحظة

واحدة، وسكت مدفع الطابية بجوار ديليسبس بعد أن دمر، استولوا علي محطة الكهرباء، مدافعنا كلها ضربت، ولم يعد هناك غير مدفع واحد مضاد للطائرات ظل يقاوم.

وتوغل الليل، وهدأت الأمور ، ثم توقف فجأة كل شيء- التقى المحافظ بالقائد الإنجليزى وطلب هدنة لمدة ٢٤ ساعة- تم خلال هذه الهدنة وقف إطلاق النار من الجانبين، واحتل الإنجليز بهدوء بورسعيد بدون إطلاق النار، احتلوا شاطئ البحر وبورفؤاد والجميل، وظلت قوة الجيش التى كانت موجودة فى بورفؤاد تدافع حتى آخر جندي، وقتل قائد القوة (البكباشى البطل توفيق) الذى أثبت شجاعة نادرة، وصمد جنوده صمودا بطوليا.

كانت الهدنة أكبر خدمة قدمت لقوات الاحتلال، أنزلوا قواتهم "البراشوت" دون مقاومة ودون طلقة واحدة وفى جوف الليل . كانت الدنيا مطفأة ، ظلام دامس إلا من أنوار الصواريخ التى يطلقها الانجليز ، وشعاع النجوم ، وعيون الناس تلمع مذهولة فى الظلام.

الجثث ملقاة بجوار الحيطان ، بقايا الناس التى نجت تفكر فى الكارثة التى حاقت بهم ، أطفالهم أسرهم، هل يلحقوا بمن ماتوا.

فى هذا الجو البشع واصلنا أنا وسعد عبد اللطيف وأحمد شوقى السير فى الشوارع، الملامح المذهولة ، الصمت ، الجثث ، النساء شبه العاريات ، أم مصابة ترضع طفلا ، ونحن سائرون سمعنا أصواتا تقول: «هيه فين روسيا ، ورطونا وسابونا ، فين روسيا بتاعتكم، جبناء، أنذال، ضحكوا علينا . .»

حـاولت الذهاب إلى بورفـؤاد للاطمـئنان على أمى ، لكن "المعـدية" ضربت، عثرنا على مركب تزدحم بالناس، لم أستطع الركـوب ، ثم صـرخـات بعـد ذلك ، انقلب المركب من تكالب الناس، وأطلقوا عليهم الرصاص.

كنت فى حنين حـقـيـقي، منزلى فى بورفـؤاد وأنا عـاجـز عن الذهاب إليه للاطمئنان على أسرتى ، هل مـازالوا أحيـاء، وكنت أرد على هواجسي.. وما الذى ستفعله مادام الناس كلهم يموتون ، وواصلت السير فى الظلام.

كانت الساعة الحادية عشرة مساء من هذا اليوم الكابوس ٥ نوفمبر ، لم نعد نسمع صوتا ولا طلقة ولا صرخة ، خفت ، كنت أشعر أننى سائر وحدى فى المدينة ولا يوجد إنسان فيها غيرى أنا ، وداخل خوفى كنت أحاسب نفسى ، وأبرر ارتباكى أحيـانا بقلة خبرتى وصغر السن وأنها أول مرة أواجه فيها موقفا معقدا ورهيبا.

كنت أشعر بأننى ضعت ، حيـاتي وشبـابى وأملى فى حيـاة وزوجـة وبيت ومسـتـقبل ، وكانت الخواطر فى رأسى متـضاربة مـجنونة بلا عـقل ولا منطق.. تلمع وتنطفئ فى أقل من ثانيـة، ويحتل مكانها خاطر لاعلاقة له بما قبله، ووصلت إلى منزل أحد أقربائى ببورسعيد سألونى عن أمى وأخوتى ، قلت لهم لا أعرف ، هاجمونى قائلين: «كفاية بأه.. أمك غلبانة بسببك».

فى اليوم التالى استيقظت فى الرابعة صباحا ، سمعت فى الشوارع حركة غير عـادية وكأن المعركـة مازالت فى بدايتـها ، نشـاط غـريب والناس يهـرولون ويجـرون وحـمـاس غـيـر عـادى

وعربات الكارو والصناديق الفارغة وأثاث البيوت والمقاعد يسدون بها الشوارع ويقيمون المتاريس ، الناس يحملون السلاح فى الشوارع وفى حالة حماس وسعادة وبلا ذرة يأس .

ذهلت لأننى تركتهم فى العاشرة مساء وكأن المدينة كلها قد ماتت سألت ماذا حدث: قالوا روسيا معانا!

لم أفهم ،قلت بينى وبين نفسى وماهو الجديد- قال لى أحد الناس - "بولجانين" قدم إنذارا لبريطانيا وفرنسا وهددهم بضرب لندن وباريس قلت؛ بدهشة وفرح : متى؟

قالوا: الساعة الثانية عشرة ليلا.

سارت إحدى عربات مصلحة الاستعلامات فى الشوارع تقول (الروس على الأبواب!) وقاوموا، روسيا معنا، انطلقت للبحث عن زملائى لنشارك فى القتال.

فى الأيام الستة الماضية قمت بأعمال كثيرة تتسم بالجرأة، ولكن هذا لم يعد كافيا، كنت مقتنعا أن الكلمة مثل الرصاصة والتوعية وسط القنابل بمايحدث وتوجيه الناس قضية من أهم ما يمكن- كنت أقول لنفسى لو عشت بعد هذه الأيام الرهيبة الحالكة لابد أن أتعلم شيئاً من خبرتها.

***

فوجئت بعدد كبير من الناس يجرون ويقولون الدبابات الروسية دخلت بورسعيد جرينا كلنا مع الناس المندفعة حتى شارع محمد على الذى يمتد من البلاج حتى معسكر الجولف وعند طريق المعاهدة وقف آلاف الناس على الأرصفة واندفع المئات يجرون

لملاقاة الدبابات الروسية ، فرح غامر شديد، رقص في الشوارع، رأينا فعلا دبابتين قادمتين من ساحل البحر يرفعان العلم المصرى والعلم الأحمر الروسى وانطلقت الزغاريد والتصفيق والهتاف في فرح هائل والتف الناس حول الدبابتين وهم يقفزون في الهواء من السعادة ولا يمكن لأحد أن يتخيل أن هؤلاء الناس هم الذين فقدوا آباءهم وأولادهم واحترقت بيوتهم في الأيام الماضية- شيء عجيب وغير معقول ولا يمكن تفسير فرحة الناس وسعادتهم بعد كل ما فقدوه، وسارت الدبابتان وسط حشود من آلاف البشر حتى نهاية شارع محمد على عند معسكر الجولف ثم استدارت وتوجهت بمدافعها نحو الجموع المحتشدة وكان الشارع طوله نحو نصف كيلو متر ومكتظاً بآلاف الناس الذين يرقصون ويهتفون ويقفزون في الهواء، ثم أطلقت الدبابات قنابلها في قلب الجموع المذهولة المحتشدة المرتبكة.

مات المئات ، الكل يجرى هربا من النيران التى فتحت عليهم فجأة، كانوا يدوسون على أطفالهم ونسائهم ورجالهم، والشيوخ تطأهم أقدام ذويهم وهم يبحثون عن النجاة بعيدا عن النيران، كانت خدعة بشعة إلى أقصى حد، قذرة إلى أسفل درجة وواصل الإنجليز احتلال بورسعيد.

كان العدو أقوى ، وكان الناس يقاومون وجها لوجه القوات التى دخلت ، الذعر يخيم على المدينة، هرب بعض الضباط وصمد البعض وقتل البعض . بدأت قوى العدو تتغلب، سلم قائد المدينة نفسه، بدأ الناس يخفون السلاح، وآخرون يدفنونه وبعضهم يلقى به بعيدا ، الجثث ملأت الشوارع، عربات الجيش محطمة فى

الطرقات وداخلها عشرات الجثث والجنود الذين حرقتهم النيران، والمدافع ملقاة..

***

قابلنى فخرى فى المساء وقال لابد من مغادرة بورسعيد الآن وفورا، سألته لماذا قال إن ضابطاً انجليزياً فى المخابرات اسمه وليامز استولى على المباحث العامة وعلى كل الملفات الموجودة واسماؤنا موجودة فى هذه الملفات باعتبارنا شيوعيين، سيقبض علينا وربما نعدم، يجب أن نختفى بعيدا يوما أو يومين ثم نعود من جديد لنقاتل بطريقة سرية.

لم أكن أدرى ماذا أفعل ، هل هذا ممكن؟ أن أخرج من بورسعيد تاركا المعركة هل أترك بلدى وأمى وأخوتى وأنا حتى الآن لا أعرف إن كانوا أحيا ء أم أمواتاً قابلنا سعد عبد اللطيف وقلت له رأيي هو رفض السفر ، جلسنا للمناقشة ، انضم لنا عدد من الزملاء الأساسيين؛ أخذوا قرارا بأن أغادر بورسعيد أنا وعبد اللطيف وشوقى وفخرى وعدد آخر من الزملاء ، ويبقى فى المدينة الزملاء غير المعروفين للمباحث العامة والمخابرات الإنجليزية ليواصلوا الكفاح فى بورسعيد ، وكان القرار أن نلتقى بزملائنا القياديين فى القاهرة ونعود بخطة جديدة مناسبة للعمل السرى خلال سيطرة قوات الاحتلال.

***

قررنا السفر ليلا، كنت وأنا سائر أتمزق وقلت لزملائى يا جماعة أنا عائد ، قالوا لابد من السفر والعودة بأسرع ما يمكن حتى

لايقبض علينا فى أول يوم للاحتلال.

***

سرنا على شاطئ المنزلة ، كان البرد شديدا ، كنت أرتجف ، صوت الطائرات وأزيزها يملأ الليل فوق رؤوسنا ، طوال السير أتذكر ، أسرتي، طفولتي، أبي ، أمي ، الحنان والاهتمام، الأماكن التى كنت ألعب فيها وأنا طفل ، أتمنى ألا يكونوا قد ماتوا جميعا وأن يبقى حيا بعض منهم، سرنا خمسة كليومترات، بدت لنا في النهاية أشباح عن بعد ، شعرت وكأننا فى يوم الحشر، آلاف الناس فى العراء فى انتظار المراكب واللنشات والجميع يلفهم الصمت وكأنه الموت.

قد نسمع طفلا يبكي ، أمه تئن ، الآلاف يشلها خوف عارم خوف أخرسها من أن يشعر بهم أحد، الناس فى شلل ومجموعات، ربما أسر وعائلات وجيران وأقارب جميعهم صامتون، لا حرف ولا كلمة ولا صوت تنفس يصدر عن الآلاف وكأنهم موتى حقيقيون لا أحد يسأل ولا أحد يتحدث ، كل منهم ينتظر اللحظة المواتية للهرب من الموت الذى رآه بعينيه وحواسه وعاش فيه ورأى فيه أخته وأخاه وأباه وأمه أو جاره أو صديقه أو خطيبته وهى تتحول إلى أشلاء أمام عينيه. كل عينين كل شفتين مطبقتين الآن صرخت ما شاء لها الصراخ من الفزع والألم والدهشة والمذابح والدم والأشلاء طوال الأيام الماضية وهذه الساعة تطبق فى خوف وفى لهفة لتنجو .

جلسنا - جاءت قعدتى بجوار أسرة ، أم وابنتها وطفلين،

الطفلان نائمان على فخذى أمهما، الأم تضع يدها على صدغها، ابنتها قاعدة وعينها مسددة إلى تراب الأرض - قلت فى همس: مساء الخير.

وبسرعة وارتياع فوجئوا بهذه الهمسة ونظروا لى بدهشة وزددوا فى ارتباك مساء الخير. أحسست بهذه الكلمة التى قلتها قد حركت الدم المتجمد فى عروقهم، وبعثت الحياة فى الجثث الراكدة، وشعرت بتيار متبادل بينى وبين هذه الأسرة، بعد هذه الكلمة. ويبدو أننى فعلت شيئا غريبا إلى أقصى درجة فى هذه اللحظة من هذا اليوم فى هذه الظروف .. أن تمسى الناس على بعضها ، هذا شىء غير مألوف إلى أقصى درجة متصورة!

وواصلت ، وسألتهم: «انتم منين» وفوجئت بالإجابة، وبدأت الأسرة تقترب منا وتدخل وسط الدائرة التى نجلس فيها وكأنهم يدخلون إلى ملجأ إلى كهف أو مرفأ.

احسوا فى داخل اللاوعى بواحد على مليون من التعويض ، قالوا «إحنا من شارع الشرقية وعندما سألتها: «انتو مامعاكوش راجل» خفضت المرأة رأسها وقالت وبين فمها وبين تراب الأرض أقصر مسافة ممكنة، وكأنها هى التى ارتكبت الجريمة أو فقدته بمزاجها ، قالت مصوبة عينيها فى عار شديد إلى الأرض وبذنب هائل قالت "مات".

الهجرة

صحا الطفلان الصغيران، وبكت في صمت الفتاة ذات الستة عشر ربيعا ، وقال الأطفال «إحنا بردانيين» ، كانت الأم تعطيمهما بجزء من ملاءتها والجزء الآخر تغطى به كتفها وابنتها، خلعت الملاءة، وأحكمت عليهما الغطاء، خلع عبد اللطيف "الجاكتة" وقال لها: «خدى ألبسى دي».. كانت الأم فى ضعف عمر ابنتها، وواصلنا الكلام، وكل كلمة تقربنا لدرجة هائلة حتى التصقت بي الفتاة تماما، ذراعها وجزء من نهدها يضغط على ذراعي ، وأحسست بدفء غريب ، ودمي بدأ يجرى فى عروقي بسرعة أكبر، وسرحت لحظات ، ووضعت ذراعي فى حنان خلف ظهرها وضممتها نحوى وهي جالسة فى محاذاتي - وتذكرت فجأة.. وبدأت ابتعد وأدركت أن الإنسان يجب عليه أن يسيطر على بدائيته ، ولا أدرى هل كنت على حق، ولكنى لن أنسى مهما حدث لحظة الدخول من الخوف إلى الأمان، أحسستها بنفس الدرجة وفى نفس اللحظة التي أحست بها هذه الفتاة وأمها.

وواصل زملائي الكلام الهامس معهم، وبدا لى أنهم يمرون بنفس تجربتي ، يحاولون صد الخوف وإجلائه عن جزء من نفوسهم، كانت النار تشتعل فى بورسعيد، ونستطيع أن نرى وهج النيران من مكاننا بجوار البحيرة ونحن على بعد أميال، لون السماء البعيدة أحمر رغم ظلمة الليل الداكنة واختفاء القمر، ولكن سماء بورسعيد كانت مضيئة باللهب ، وأصوات الطلقات والانفجارات تدخل فى أعماق مخى ، وتنقلنى إلى أمى وأسرتى وتساؤل لا استطيع الفرار منه، هل ما توا؟ وهل كان

منظرهم وهم موتى مثل الجثث التى رأيتها فى الشوارع.
كنت أتخيل من المكان الذى أجلس فيه المكان الذى ولدت فيه، والبيت الذى عشت فيه طفولتى والذكريات تمر، الشقاوة، اللوح الإردواز، القفز على سور محطة المنزلة وسرقة الطماطم والبرتقال والجرى ولعب الكرة وحنان الأم والأب وأهبط من ذكرياتى إلى القعدة وإلى الناس حولى والمرأة وابنتها وأتساءل عن المستقبل بالنسبة لهم. وتخيلتهم ولا أدرى لماذا يضطرون إلى أن يعيشوا حياة غير كريمة، وفزعت ، وعشت داخل خواطر تمزقني.
سمعنا صوتا يقول المراكب وصلت. وكأن ريحا هبت على أرض متربة هادئة وهيجت التراب المتراكم عليهاو جرى الناس ناحية الشاطئ.

***

وقفت المراكب بعيدة عن شاطئ البحيرة ، وعلينا أن نخوض فى المياه حتى نصل إليها - «ياللا يا شوقي، إيدك فى إيدى وانتى يا فتحية شيلى الولد ده، وانت مانزحشي بعيد عنى يا ابنى خليك معايا نشوف احنا رايحين على فين، ورجل عجوز يصرخ ويقول ما تسيبونيش لوحدى ، خدونى معاكم».
فى هذه اللحظة تحس بوجود ترابط إنسانى قوي جدا بين الناس ، أعلى درجات الترابط والتضحية والبذل والاهتمام بالآخرين .
فى الأيام الماضية شفت الخوف الرهيب والإحساس بخطر الموت المؤكد أمام الدبابات وتحت قنابل الطائرات وفى قلب الحريق ووسط النيران وبين طلقات الرصاص ، رأيت الرجل يدوس على طفله لينجو، رأيت الطوفان والفزع من الطوفان ، والخطر يدمر

إلى أقصى درجة تتخيلها أفضل ما فى كيان الإنسان ويحوله الخوف إلى كائن بشع ضعيف أنانى أعمى لا يرى ، يحوله الخطر والخوف الشديد إلى أدنأ صورة ممكنة إلى أقل من حيوان- وعندما يخف الخطر درجة واحدة ويقل الخوف درجة واحدة تظهر فى الإنسان أعلى قيمة ممكنة، وأغلى ما فى الكيان الإنسانى من تعاطف وتآزر ، ويبدو إنسانا أرقى وأعلي، مضحيا حاملا فوق كتفه أخاه مقدما أمامه أى إنسان آخر قاسما ما في فمه مع الآخرين عارضا عليهم مساعدته.

شاب بجوارى شاف امرأة بجوارنا قال لها «مش عاوزة مساعدة ياست» كل واحد منا حمل طفلا وحملنا المرأة نفسها وابنتها وخضنا فى المياه وبرودتها تكاد تقطع فى لحمنا كالسكاكين، والمياه تعلو شيئا فشيئا، ونحن نغرق أكثر فأكثر حتى وصلنا إلى المركب، والناس تحذر بعضها «حاسب على نفسك حتى لا تقع فى المياه، معلش يا ابنى تحمل، حنوصل وآخرون يقولون الله يخرب بيت الإنجليز شردونا من بيوتنا، وآخر يقول إحنا مش مسلمين ياجدعان.. داموت!!».

قعد الناس داخل أحد المراكب ونحن معهم ، المركب حمولتها حوالى ثلاثين شخصا وهى الآن محملة بمائتين، سمعنا صراخا خلفنا، غرقت إحدى المراكب وانقلبت بمن فيها، على سطح المياه طفل رضيع عمره أقل من ستة شهور عائم، إحدى السيدات مدت يدها واستنجدت بى وقالت: (هاته والنبى الله يخليك أولادى كلهم ماتوا وماليش حد) انتشلته من على سطح البحيرة، خلعت المرأة عنه ملابسه الغرقانة المبتلة ، وخلعت ملاءتها ولفته فيها،

وظلت طول الوقت تحضنه في صدرها..

بدأ الكلام ينمو فوق المركب ، كلما توغلت وابتعدت عن الجحيم، واصل الناس الكلام والزن والطنين والعودة من داخل أنفسهم وطفت نفوسهم فوق المياه من جديد ، وخرجوا من مخابئهم الذاتية، وهم يتبادلون الأحداث التى مرت بهم وماجرى لهم.. والذى عاش والذى مات والذى لا يعرف شيئا عن أهله ، البعض يتساءلون هل مازالت المطرية بعيدة (يا ترى حيعملوا فينا إيه، حنعيش إزاي، حنسكن فين ، كل شيء راح.. الحكومة لا يمكن تتركنا ، لابد عاملين استعدادهم، مش كفاية اللى شفناه، كل الهم ده على دماغنا، بيوتنا اتحرقت ، وأكل عيشنا راح.. لا لا ضرورى الحكومة عاملة حسابها، ضرورى الريس موضب كل حاجة..)

ويرتفع صوت يهاجم ، فيرد عليه آخر قائلا أنت لم تر مافعلته المدفعية، ويحكي عن المدفع الذى كان موجودا بجوار شركة القناة، والطاقم الذى كان يعمل عليه، وكيف رأى بعينيه أنه عندما كان يقتل أحد الجنود كان زميله يتسلم مكانه حتى انتهوا عن آخرهم هم وضباطهم، وكيف ظل الانجليز عاجزين أمام عدد كبير من المواقع التى دافعت عن المدينة ببسالة..

بدأ الظلام ينقشع وتظهر أنوار الفجر ، وفجأة صاح أحد الركاب «المطرية أهه ظهرت»

ووقف جميع الناس ينظرون ويرون ويقولون الحمد لله.. وصلنا .

المطرية : مدينة صغيرة مقابلة لبور سعيد تفصلها عنها بحيرة المنزلة

وتراجع الكلام وبدأ الصمت من جديد .. والتفكير فيما ينتظرهم في المطرية.

وصلنا المطرية وفوجئنا بأن الذين وصلوا قبلنا متجمعين في حلقات ويجلسون على الأرض ويخيم عليهم الحزن والضياع ، والأطفال حول أمهاتهم ، النساء يجلسن في انكسار. ولا تلحظ أي بادرة اهتمام أو عناية ، ذهب بعض الناس إلى مبنى مصلحة السواحل سألوا موظفا بالداخل أجابهم بأن ليس لديه تعليمات، كانت مفاجأة محزنة أن نرى الذين سبقونا "متلقحين" على الأرض لا يسأل عنهم أحد.

اشتد وهج الشمس والناس يبحثون عن مكان في الظل يحتمون به والأطفال يبكون ويحومون حول باعة العيش والطعمية . وهجم الناس من جديد على مبنى خفر السواحل دون جدوى . ثم جاءت عربة هبط منها ضابط بكباشي (مقدم) متوسط القامة في ملامحه طيبة نظر إلى الناس المرهقة وقال (شدوا حيلكم يا أبطال). (وسألوه هل سنترك هكذا وابتسم وقال أنتم في أعيننا ، سنريحكم كلكم)

وقال سيصل قطار حالا وعربات لنقلكم إلى داخل البلاد وستجدون كل رعاية ، ووزع نقودا على الجالسين ليشتروا بها بعض الطعام حتى تصل العربات ، وتعالت الأصوات بالدعاء له واستراح الناس قليلا..

وصل القطار واندفع الناس إلى داخله ، وازدحم القطار وركب الناس فوقه وعلى حواف الأبواب والنوافذ وامتلأ على آخره .. وانطلق القطار.

وجاءت عربات نقل ، وركبنا إحدى العربات ، وسارت في صف طويل على الطريق الزراعي غير المرصوف، الطريق على حافة الحقول الخضراء حيث يعمل الفلاحون والبقر والجاموس ، تشعر أن الحالة هنا طبيعية جدا ، هادئة ليست على أى درجة من درجات التوتر ، كل واحد فى حاله وعمله وكأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق.

سارت العربات فى اتجاه المنصورة ، على الطريق الزراعى وصلنا إلى قرية اسمها "العصافرة" فوجئ السائق بالفلاحين يعترضون طريق العربة ، وأشار أحدهم وقال (وقف يا جدع) ووقفت العربة ، وقدم الفلاحون ما حملوه من (صوانى) محملة بالعيش ،والجبن والبيض وأطعمة كثيرة (وزلع) بها مياه وزعوها على الناس وهم يقولون : (خذوا ، ربنا يصبركم، ربنا يكون فى عونكم) وهم يلحون على الناس للنزول من العربة والإقامة فى بيوتهم (إحنا لازم نتعاون مع بعض، إحنا أهل، يالا انزلوا وحتكونوا فى عيوننا وربنا يرزقنا ويرزقكم..) ونزل من العربة بالفعل عدد من الناس والفلاحين يحضنونهم ويقبلونهم ويحملون أطفالهم ، وسارت العربات - وتكرر هذا الموقف على طول الطريق فى قرية الحوته ، الشريفة ، الطوايرة ، المنزلة ، وقرى أخرى.

وفى بعض القرى الكبيرة التي بها مدارس، كان المدرسون وكبار رجال القرية يأخذون أعداداً من المهاجرين ليسكنوا ويقيموا في هذه المدارس حتى وصلنا المنصورة.

***

التقينا بزملائنا الذين أخذونا إلى معسكر الحلمية للتدريب ، قابلنا هناك عددا أكبر من الزملاء جلسنا في مقهى صغير كان نقطة تجمع للزملاء المنضمين لمعسكر الحلمية ، التقيت في المقهى بعدد أكبر من الأصدقاء، وجوه لم أرها منذ فترات طويلة ، ملابسي كانت مبتلة، أعطاني أحد زملائي ملابس جافة ، كنا مجموعة تركيبها غريب ، موظف وصحفي وأديب وعامل وفلاح وطالب. رغم هذا مشاعرنا واحدة ركبنا عربة - وبصوت جماعي قوي أنشدنا" دع سمائي فسمائي محرقة..." كنت أشعر بالتجمع في داخلي والنشوة والفرح - شعرت أن شيئاً جديدا يتدفق في داخلي ، اغتسلت وأصبحت أقوى ، تمنيت أن أعود في الحال إلى بورسعيد . سأكون شيئاً آخر.

دخلنا المعسكر ، دربت على ضرب النار، في الليل سرت في طرقات قرية الحلمية، كان السلاح على كتفي ، كانت الدنيا عتمة ، الأرض موحلة بالطين ، سمعت وأنا سائر راديو يذيع تسجيل خطاب عبد الناصر في الأزهر ، سنقاتل سنقاتل، اقتربت من مصدر الصوت ، حجرة مرصوص فيها (دكك) وفلاحون قاعدون يشربون الشاي، لابد أنه مقهى صغير آخر ، دخلت قعدت ، شربت شايا، وكان الحديث دائرا بينهم عن بورسعيد ، قال أحدهم (تصوروا بعد الانجليز ما دخلوا البلد جعلوها شعلة من نار، واشتدت المقاومة رد عليه آخر: الأهالي في بورسعيد كانوا يحاربون من شارع لشارع ومن حارة إلى حارة ومن بيت إلى بيت ، الجيش قاوم مقاومة بطولية) وأكد آخر (أنا سمعت هذا الكلام من الإذاعات الأجنبية) آخر يُهز رأسه ويقول : (يا سلام

ناس جدعـان) كنت أسمع وأحس بالحديث يتدفق فى عـروقى مع دمى وأنا فرحان وفخور وأريد أن أصرخ فيهم أنا من بورسعيد ، ولكنى لم أفعل.

شربت الشاى واستمعت إلى نشرة الأخبار تتحدث عن استقبال المهاجرين الأبطال وعن المقاومة المستمرة داخل بورسعيد ، ومظاهرات فى العالم كله ضد العدوان ومساندة السوفيت لنا قال أحد الجالسين (شايفين العالم كله معانا ، الروس دول ناس جدعان قوى لم يتخلوا عنا الواحد كان خايف ، أصل الواحد متعود أنه لا يثق فى الأجنبى) قال آخر: (كيف يتخلون عنا هل هذا معقول؟) وطال الحديث حتى امتد إلى حكايات عن الفدائيين عام ١٩٥١ وبطولات منطقة القناة أيام تصديهم للانجليز.

عندما عدت إلى المعسكر فى منتصف الليل لأنام لم استطع أن أقاوم صورا محفورة فى رأسى عن حرارة الحريق وصراخ الناس والهرب من الموت وعن الغرق وانهيارات البيوت وقلقى الشديد على أهلي.

في الصباح تدربنا على إلقاء القنابل اليدوية وعلى ضرب النار مرة أخري، وفجأة ، وصل أحد زملائناوقال (استعد لتسافر معى إلى الزقازيق ، لقد وصلنا إلى اتفاق مع أصدقاء لنا فى الجيش لدخول بورسعيد سرا عن طريقهم).

***

فى الزقازيق جلسنا فى مقهى مع اثنين من الضباط الشبان وكان معى شوقى ، واضح من حديثهم أن صلتهم ببورسعيد مقطوعة ، شعرت أنهم لا يثقون بى وذلك لصغر سنى وضآلة

خجمي.

انتهى الحديث . جاء زميل ثالث على علاقة قوية بهما أكد لهما أنني أستطيع القيام بالأعمال التي أكلف بها كان عمري في ذلك الوقت ٢١ عاما ، جاء الليل ، ركبت سيارة مع الضباط ومع زميلنا الثالث.

عدنا من نفس: الطريق الزقازيق - المنصورة المطرية كان القمر يضئ الطريق ، والجو رائع ومنعش وهادئ والرحلة ممتعة تحدث معى ضابط المخابرات عن كيفية التصرف لو قبض الانجليز على عند عودتي لبورسعيد ، سأعود متخفيا في زى صياد ، ويجب أن يكون سلوكى مثل الصيادين ، بسيط وجاهل بالأمور العامة وبعيد عن الحياة المتحضرة ، ولو شتمت يجب الا استفز ويجب التصرف فى سائر الحياة اليومية مثل الصياد البسيط الذى لا يعرف شيئا. قال الضابط إنه سيعتمد علينا ،. القارب الذى سينقلنا نحن الثلاثة أنا وشوقى وسعد رحمى سيبدأ الإبحار بعد فترة قصيرة ، قال إن المطلوب منا تقرير عن كل شيء فى بورسعيد ، عن الناس ، وحياتهم واحتياجاتهم وعن التموين والإدارة المحلية وأسماء الأشخاص الذين يتعاونون مع العدو ، وعن القوات العسكرية المعادية وتوزيعها وأماكن تواجدها وعدد العربات وأماكن الطائرات والدبابات ، وأن نهتم جدا كما قال بالعلامات الموجودة على (الكابات) أغطية الرأس والعلامات الموجودة على العربات لأن هذا يحدد نوع القوات الموجودة وعددها - بعد فترة من الوقت قالوا استعدوا - قال الضابط : لن نستطيع أن نأخذ الآن غير شخص واحد فقط هذه الليلة

تقدمت أنا وانتظر الزميلان للغد.

***

خلعت ملابسي، ارتديت جلبابا رائحته سمك وزفاره وطاقية بيضاء متسخة ولفيت عليها شال أبيض . خلعت النظارة وأعطيتها مع ملابسي للصياد صاحب المركب. سرت متجها إلى الشاطئ، وفي قلبي الفرحة ، وفي رأسي صور الحنين لأبي وأمي وبلدي وإخوتي وفجأة سقطت في مياه البحيرة ، السقالة بها فتحة وقعت فيها وأنا متجه إلى المركب الدنيا ضلمة ، وأنا سائر بدون النظارة وشدني الصياد الحاج محمود من الفتحة بعد ما ابتلت ملابسي المركب قارب صغير لا يتسع لأكثر من أربعة أشخاص ، ويسير بالمجداف وبه قلع صغير ورائحته زفارة السمك ، قال المراكبي (إنزل تحت) قبو صغير في المؤخرة يستخدم كمخزن لأدوات الصيد.

الدفة في الناحية الأخرى ، نزلت قعدت وسط المعدات ، الدنيا برد وملابسي مبتلة ، جلست أنتفض، طوال الرحلة أسناني تصطك من البرد ، بعد فترة نبهني المراكبي قائلا (ما تطلعشي فوق إلا لما نقول لك) كان معه ابنه صبي عمره ١١ عاما ، شقت المركب طريقها في مياه البحيرة . عيناي لا تريان غير جوانب المركب والسماء كل شيء هادئ لا تسمع غير صوت التجديف وصوت المياه والمركب يشقها ، وكلمات قليلة يتبادلها الرجل مع ابنه.. (الريح هادية ، الريح النهاردة كويسة وهي رايحه بور سعيد افرد القلع ، اهيه الريح ماشيا معانا ...، واسمع حركة اقدام فوق رأسي وصوت الكلام (ثبت الدفة ، إحودها شوية ،

يا لا توكلنا على الله ، الميه رايقة النهاردة ، عاوزين نلحق "الشبك" قبل الفجر). في منتصف البحيرة يلقى الصيادون شباكهم في أماكن معينة ويتركونها أياما ثم يعودون ليلموا الشباك ويجمعون صيدهم وكل قطعة في البحيرة يستغلها معلم صياد معين، وهؤلاء البحارة يبيعون السمك للصيادين وللمعلمين، يشترون منهم السمك وهم في البحر، ويأخذ الصيادون السمك في القوارب إلى بور سعيد لبيعه وتوزيعه على التجار ، ولكي ندخل بور سعيد والدنيا عتمة. صوت رفيع يسأل (هيا الدوريات بتاعة الانجليز بتمر الساعه كام في القابوطي) أجاب الرجل

(ملهاش ميعاد بتطب فجأة، ربنا يستر، الواحد مش عارف يلاقيها من السواحل وإلا من الانجليز. يسيب السواحل من هنا يلاقي الانجليز قدامه). وخيم الصمت من جديد، وفجأه ناداني عم محمود قائلاً:

(ياأستاذ اطلع فوق شويه، شم لك شويه هواء لسه بدري، وكل معانا لقمه) الأكل وعاء فيه سمك مدفون في الأرز لونه أحمر، وهي أكلة الصيادين الشهيرة واسمها" المدفونه".

***

لم يحاول أن يسألني عن أي شيء، ويبدو أن لديه تعليمات بألا يتحدث معي في أي موضوع وطالت فترة الصمت وأنا جالس معه ومع ابنه.

حاولت أن أحرك الصمت، قلت، هل لك بيت في القابوطي، قال(ايوه بس العيال وديتهم المطريه، العيشة هناك خطره من يوم

ما نزل الانجليز، فجأة تلاقيهم نزلوا عليك فى البيت، خفت على الوليه والعيال نقلتهم المطريه)

سألت: يعنى القابوطى فاضى- قال (لا- فيه شويه صيادين بيسيبوهم يطلعوا يصطادوا السمك ويبيعوه فى بور سعيد)

قلت: إنت رحت قبل كده؟ أجاب أنا جاى من هناك.

وعاد الصمت من جديد. وقال لى (انزل تحت كفايه كده أحسن قربنا على" الشبك" ومفيش داعى حد يشوفك من الصيادين).

نزلت مرة أخرى للوحدةوالبرد الشديد وملابسى المبتلة، قرفصت وحاولت النوم بلا فائدة، فكرت كثيراً فى الذى سأفعله فى بور سعيد عندما أصل إلى هناك، مطلوب منى تقرير شامل، وليست لدى أى فكرة حاليا عن بور سعيد الآن، هل سأجمع مواد التقرير وحدى، أم أستعين بالناس والزملاء، ياترى بيوتنا لسه موجودة ولا انضربت وأين سأنام!

استعرضت أقاربى من غير المعقول أن يكونوا جميعا قد ماتوا ، لو قبضوا على ماذا أفعل ، أسئلة كثيرة كانت تدور فى رأسى ولا أملك إجابة عليها.

سمعت أصواتا وضجة ، يبدو أننا اقتربنا من مكان "الشبك"، فصال بين المراكبية والصيادين حول السمك وصوت يقول : (على خيرة الله).

وسار القارب ، وبعد لحظات قال الحاج محمود المراكبى (خللى بالك لقد اقتربنا) قلبي يهتز ويدق ، الدنيا ظلام ، لا أدرى شيئاً ، لا أعرف قد تكون النهاية ، وقف القارب نزل عم محمود فى مياه البحيرة وغاب لحظات ثم عاد وقال (تعالى توقفت

المركب فى مكان بعيد عن القابوطى بمسافة كبيرة ، سألته هل المياه غريقة ؟ قال لا انتظر فى المياه بجوار المركب وعندما أشاور لك تقدم.

***

نزلت وأنا أتحسس بقدمى المياه ويدى تمسك بالمركب، ولم أترك المركب حتى وقفت بقدمى على قاع البحيرة المياه دافئة نوعا ، وغاب عم محمود ، وبعد فترة طويلة عاد غاضبا وأمسكنى من يدى وقال (أنا شورت لك وماجتش ليه) قلت مبتسما : نظارتى معاك قال: يا للا وصلنا. على بعد أمتار من الشاطئ، كان هناك مبنى من دور واحد دخلنا فيه ، كانت زاوية للصلاة قال : انتظر وخرج وألقى نظرة ثم عاد يقول : تعال مفيش حد.

خرجت من زاوية الصلاة والفجر بدأ يشقشق وظهر القابوطي، الطرق غير مرصوفة ومتربة وموحلة وعلى الجانبين بيوت خشبية من دور واحد مقامة على أربعة أعمدة حديدية على غرار الكبائن ، وفى نهاية الطريق مبنى يبدو أنه الاسعاف ونقطة البوليس ، الجو هادئ جدا ولا تسمع صوتا ، الصمت يسيطر على المكان وعلى البعد قبة الشيخ القابوطى وفراغ يحيط بالمقام كالصحراء ، وعلى البعد أيضاً بيوت خشبية لونها مغبر ، واقترينا من أحد البيوت ، فتح الباب، ودخلنا من مدخل صغير أرضه خشبية ويبدو من الداخل مثل الكابينة ، وعلى اليمين باب آخر دخلنا فيه حيث حجرة صغيرة بها "كنبتين" ودولاب قديم ومنضدة خشب وسرير كبير بأربع أعمدة حديد ويغطى السرير ناموسية جلسنا . وقال الصياد :"نأكل لقمة" ، وكشف غطاء حلة كانت موجودة

على المنضدة فيها "مدفونة" من نوع آخر، مدفون فى الأرز طائر الغر الأسود والأبيض وطعمه كان لذيذا جدا.

بعد أن أكلنا أخذ دراجة كانت مركونة بالمدخل ووضع عليها جزءا من الشباك وأعطاني "قفه صغيرة" وقال لى : إحملها. طلعنا من القابوطى ، سرنا فى طريق طوله ثلاثة كيلو مترات ، على جانبه قناة السويس وبداخلها السفن الغارقة وعلى الجانب الآخر بحيرة المنزلة وبعد فترة من السير ظهرت عزبة فاروق.

بيوتها مبنية من البوص المكسى بالجير وشبابيكها صفيح والبيوت متلاصقة، وسرنا حتى ظهر أمامنا السجن والجمرك والناس والأولاد الصغار الفقراء والقناة الداخلية (ميناء صغير بين القناة وبحيرة المنزلة ترسو فيها مراكب الصيد والمراكب الشراعية المهجورة) وعلى الطريق الورش الصغيرة ومخازن الحديد الخردة قبل العدوان كان هذا المكان يغص بالناس كخلية النحل صيادون ومراكبية وعمال وموظفون وباعة متجولون ، والآن الحركة ميتة ، المخازن مغلقة والورش مقفلة ولا أحد يتحرك غير سكان العزبة.

سرنا فى الشارع الطويل الممتد من أول المدينة حتى محطة السكك الحديدية اقترنا من البيوت الكبيرة ومعها الشوارع المتسعة ونحن نتجه ناحية البلاج ولا توجد حركة فى البلدة . هذا المكان الذى نسير فيه كان أحد الأماكن الشعبية المزدحمة دائما بالباعة والعمال وعربات النقل والأتوبيسات ولكنه الآن خال تماما من ازدحامه المعتاد.

وأنا سائر فى الطريق رأيت عمى سائرا هو الآخر ، لم يتعرف

علي ، بدا لي أن الناس فقدت الاهتمام بما حولها ، وصلنا إلى سوق السمك وهو مبنى كبير واسع يغطيه سقف من الخشب وتحته محلات وعربات يد، قبل العدوان الأصوات والنداءات والمساومات تشعر وكأنك في مولد. اليوم خاو تماما.

دخلنا شارع كسرى فى قلب بورسعيد ، جميع المحلات مغلقة ، المقاهى فقط مفتوحة ، وصلنا إلى محل سمك مغلق ، فتحه عم محمود المراكبى ودخلنا ، قال (اقلع الجلباب وخد هدومك إلبسها) ارتديت ملابسي ونظارتي وعدت شخصا عاديا وخرجت من الباب الثاني ، المحل له بابان كل باب يفتح في شارع مختلف عن الآخر، دخلت من شارع برداء الصيادين وخرجت إلى الشارع الآخر بملابسي العادية.

سرت عددا من الخطوات في الشارع، وقفت أمام بيت أحد أصدقائي ويدعى عبد المحسن يعمل ترزيا ، قصير وسمين ٣٠ سنه ومتحمس دائما لتنظيمنا الشيوعى هو وأبوه الفراش في المدرسة الثانوية. فتحت أخته الباب ١٨ سنه بيضاء وجميله.. سألتني من خلف الباب الموارب، قلت لها أنا ابراهيم. شهقت بفرح وانطلقت إلى الداخل جريا ، هجم على صديقى عبد المحسن وأبوه بالقبلات قالا: أمك قلبت الدنيا عليك (إذن فهي مازالت حية)

جلسنا نتبادل النظرات والابتسام والتحيه، وقالا مره ثانيه أن أمي قلبت الدنيا بحثا عنى، وقال عبد المحسن إنه أكد لها أنني سافرت، اطمأننت على أخبار عائلتى لأول مرة.

قال عبد المحسن إنه كان في منزلنا بالأمس وكانت أمي تعد

للطعام" ديكا روميا" دهشت وقلت له من أين لهم هذا ، فسر لى الأمر قائلاً : عندما أحتل الانجليز المدينة كسروا أبواب الجمرك والمخازن ونهبوها ثم ذهبوا ، فدخل الأهالى "وكبسوا" على الجمرك واستولوا على أجولة الأرز والدقيق والبن وصناديق الشاى والسكر وكان الجوال يباع بخمس وعشرين قرشا ولا يجد مشتريا ذلك لأن الأزمة كانت في النقود ، وكانت هناك صناديق ممتلئة بالدجاج والديوك الرومية والويسكى فى ثلاجات الجمرك ، وكان من نصيبكم ديكرومي رفضت أمك ولفترة طويلة أن تعده للطعام قبل العثور عليك.

قلت لعبد المحسن سأذهب إلى منزلي فى بور فؤاد . قال إن الدخول إلي هناك بتصريح ، خذ التصريح الخاص بى.

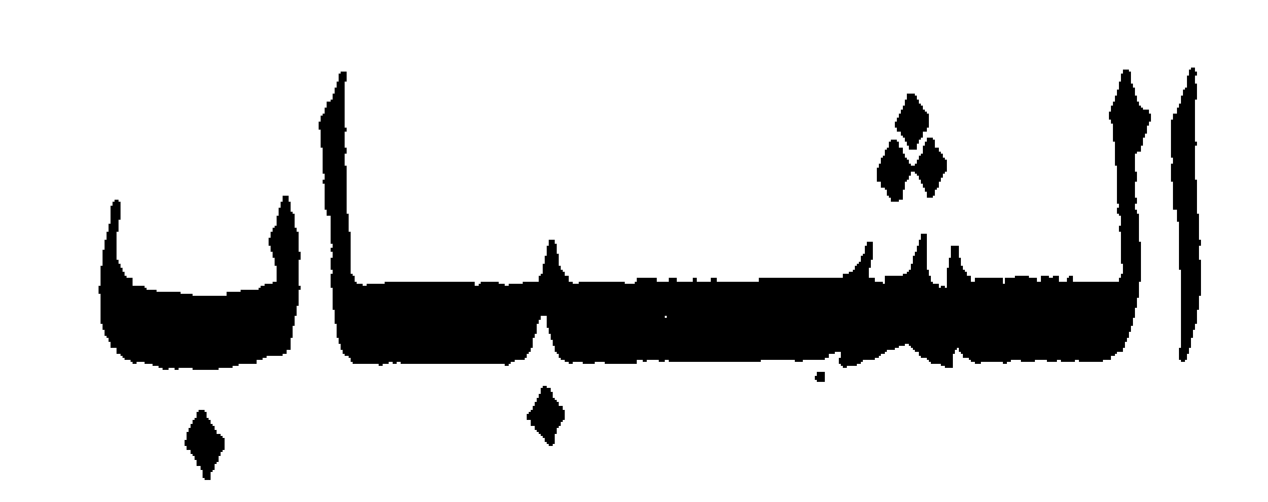
نزلنا ، سرنا وتحدثنا وسألته عن زملائى ، وعن صلاح دهب ، قال إنه مازال موجودا وأنه عضو في اللجنة العليا للمقاومة الشعبية وأن اللجنة أصدرت منشورا تطالب فيه الناس بالاستعداد للمقاومة .سألته عن الشعارات الموجودة فى المنشور ، قال إنها (حافظوا على أسلحتكم ، وأن كلمة عبد الناصر سنقاتل سنقاتل هى الشعار الذى نحاول تجميع الناس حوله. سألته من موقف الناس من النظام ومن عبد الناصر، سألته عن الإدارة المحلية : قال إنها عاجزة إلى حد كبير وظلت الشوارع ممتلئة بجثث القتلى حتى تعفنت وأصبحت رائحتها لا تطاق، وتحرك الأهالى بمبادرتهم ونقلوا الجثث على عربات "كارو" إلى الجبانة ، ونقلوا أيضا الجثث التى كانت داخل عربات الجيش.

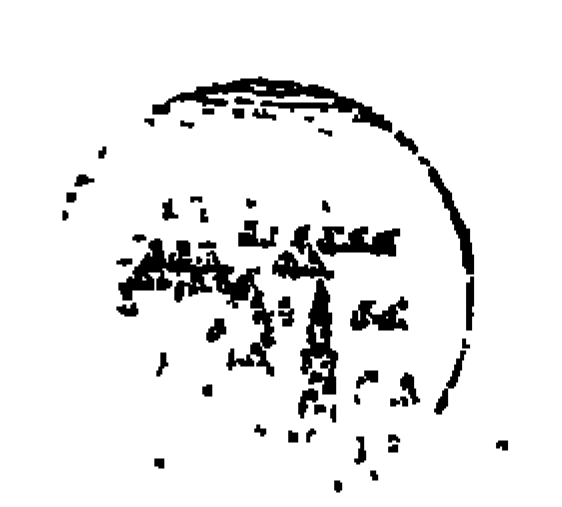
وصلنا المعدية ، هذا المكان بالذات من أجمل الأماكن فى

بورسعيد . كان ممتلئا بالحياة مئات العمال ذاهبون وعائدون من عملهم ، عشرات البواخر والسفن والقوارب الصغيرة التى تحف بها وممتلئة بالبمبوطية (تجار البحر) الذين يتبادلون البضائع مع ركاب السفن التى تمر بالقناة وترسو على شاطئ بورسعيد ، كانت هنا حياة زاخرة بالحركة..

وفى أيام العطلات تتحول بورفؤاد إلى ملتقى العشاق وإلى مكان للنزهة ترتاده العائلات ، ذلك لأنها تمتلئ بالحدائق والزهور والأشجار – أما الآن فالجمرك أسواره مهدمة والسفن غارقة فى الميناء ، والمبانى محطمة وآثار الحريق تغطى واجهات البيوت.

وقفت انتظر "المعدية" وهى فى طريقها آتية من الشاطئ الآخر ، وصلت وتوقفت وبدأ الناس ينزلون منها ، كنت أتفرس في القادمين من الشاطئ الآخر من بور فؤاد . وفوجئت بأمى وسط الناس متشحة بالسواد ، نزلت وبدأت تنظر يمينا ويسارا وتفرز بعينيها الواقفين ، كانت تبحث ولديها أمل فى أن تجدني ، والتقت عيوننا ، ووقفت نصف ثانية مشدوهة وصرخت وهى تضمني : ابنى ابنى إبراهيم . وانهمرت من عينها الدموع والفرح يقفز من ملامحها ، ثم تتركنى لحظة وتعيد النظر إلى لتتأكد ثم تعود لتضمنى بعنف من جديد وهى تقول: كنت فين حرام عليك.


الشباب



الغريب أن الناس حولى لم تهتز من هذا الموقف ، ويبدو أنهم اعتادوا على هذه اللقاءات العاطفية العنيفة المؤثرة التى تحدث فجأة فى الشارع. وسار الناس و تركونا مغمورين في هذه اللحظات.

قالت : يا للا نركب المعدية ونرجع بها إلى بورفؤاد ، أنا كنت طالعة أدور عليك .. قالت ، كل يوم كنت أطلع من الصبح حتى حظر التجول وأسأل عليك ومفيش فايدة، قالت وهى تتنهد والحزن يملأ عينيها :

عندما وصلنا إلي سور الجمرك عشرات من جنودنا قتلوا هنا ، وكان الجرحى كثيرين ، والدم يسيل منهم، وأصوات الألم تخرج من أحشائهم والأنين يمزق القلب، ولكن الناس جميعا كانوا كالغرقى يبحثون عن حالهم وعن أنفسهم ، ولا أحد يسأل، وأشارت إلى مكان وقالت: هنا قتل قائد بور فؤاد ، ظل يقاوم حتى آخر لحظة ، ضربوه من الطائرات بالقنابل والرصاص وحتى الذى نجا من القوة العسكرية رمى نفسه فى مياه القناة وكانوا يصطادونهم بالرصاص، فى الوقت ده كنت طالعة أدور عليك، واسأل الناس ومحدش كان بيجاوبنى أبدا رحت بورسعيد وضلمت الدنيا على ومفيش نور غير نور الحريق وكنت أجرى من غير هدف يمكن أقابلك، كل واحد أقابله أبص فى وشه وأجرى تانى ، الناس كانت ملهية ، رحت المستشفي ودخلت المشرحة، لقيت جثث كثيرة جدا مكومة فوق بعضها وناس كتير بتقلب في الجثث وتبحث عن أولادها ، ودورت بعينى بين الجثث لغاية ما لقيت شاب فى طولك ولابس بلوفر زى اللى كنت لابسه يومها وبنطلون

رمادي زيك، جريت عليه وكان نايم على بطنه ومسكت هدومه ، آجي أقلبه على وشه أيدي انشلت إيديا اتسمرت ، مش عاوزه أصدق أنه أنت وقعدت ماسكه فى هدومه ، وقلت يارب يارب، وقلبته وبصيت فى وشه ولقيت نفسى استريحت وقعدت أصرخ وأقول مش هوه ، مش هوه ، وخرجت على بره ، الجو بره كان يخنق من الدخان والحريق ، جريت فى الشوارع لغاية ما قابلت بالصدفة صاحبك عبد المحسن هوه اللى طمني وقعد يحلف أنك سافرت ، وبرضه ماكنتش مصدقه ، وكل يوم أطلع أدور عليك).

***

كانت هذه هى قصتها ، قالتها وهى بتحسسني وتتأكد ،عبرنا القناة ووصلنا بورفؤاد ، يقف على مدخل بور فؤاد بعد النزول من المعدية عدد من الجنود المسلحين سألتها عنهم قالت (دول العساكر الفرنساوى اللى احتلوا بور فؤاد ، والانجليز احتلوا بورسعيد ، - والرسوة التي تبعد عن بورسعيد قليلاًفي صحراء سيناء - احتلتها إسرائيل) أبرزنا التصاريح وسمحوا لنا بالعبور ، الجنود شبان لا يتجاوز عمر الواحد منهم ٢٠ سنة ، لا نشعر مطلقا أنهم جنود ، نشعر أنهم ناس عاديون جدا مثل الذين نقابلهم كل يوم فى الميناء ، فقط الملابس الصفراء والسلاح هو الذى يشعرك بالفرق وبأنهم غرباء.

سرنا فى شوارع بور فؤاد التى كانت مزروعة بالورود والأشجار العالية والحدائق، كل هذا تحطم ودمروه، آثار الحريق تنطق فى كل ركن ، وحفر مكان الحدائق من أثر القنابل وعربات محطمة مبعثرة فى الشوارع ، تشاهد الخراب فى كل مكان ،يبدو بوضوح

على وجـوه الناس الألم واليـأس والحـزن ، اللون الأسـود هو الغالب في ملابسهم ، اختـفى مرح الأطفال الذين كـانوا يجرون ويلعبون في الحدائق والميادين ، اختفت العربات وأصبحت لا ترى غير العربات الصفراء والجنود بملابسهم الصفراء أيضاً.

وصلنا إلى البيت الذى انقلب إلى فرح حقيقى وقبلات وأحضان وحكايات ، أخى الصغير حكى لى عن دوره !!، عمره ١١ سنة قال لى (والضرب شغال كنت واقف فى الشارع ، ولقيت ماسورة بندقية مرمية ، مسكتها ، وظهر أمامى فجأة أربعة عساكر فرنساويين شايلين السلاح، صوبت نحوهم الماسورة فرفعوا أيديهم إلى أعلى مذهولين ، ارتبكت ورميت الماسورة وجريت ، جريوا ورايا ، ومسكونى ، ولقوا الماسورة فاضية، ضحكوا وأعطانى واحد منهم شيكولاته).

فتح الفرنسيون المخازن وتركوها فترة بدون حراسة، ودخلها الأهالى وأخذوا بعض المأكولات ، وجاء الانجليز وجمعوا عددا من الأطفال حولهم ووزعوا عليهم حلوى وضحكوا معهم، خلال ذلك كانوا يصورون الضحكات، وعندما انتهى التصوير ضربوهم وطردوهم وقفلوا المخازن.

***

تركت بور فؤاد وعدت إلى بور سعيد والتقيت بعبد المحسن وجلسنا فى مقهى الطناحي، هذا المقهى لعب دورا مهما فى المقاومة حيث كنا نلتقى فيه، وهو مقهى كبير فى شارع الثلاثيني أمام سينما الحرية وأمام رصيفها عدد من البواكي وبالمقهى جهاز تسجيل كان يذيع قبل العدوان الأغانى الشائعة المسجلة،

ويتجمع فى هذا المقهى الشباب - جمع عبد المحسن عددامنهم لأتحدث معهم داخل المقهى، المشكلة الأولى التى تؤرقنى هى رصد قوة العدو والتعرف على ظروف بورسعيد اليومية بالتفصيل، وذلك لكتابة التقرير للمسئولين فى القيادة الشرقية.

شرحت لهم الوضع السياسى والمهمة العاجلة المطلوبة فورا وهى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات العسكرية عن العدو ، وشرحت الطريقة التى يمكن الحصول بها على هذه المعلومات بالوقوف بالقرب من معسكراته وتجمعاته ورصد حركة العربات وتسجيلها ، وتسجيل علاماتها ، وكل العلامات الموجودة على أغطية الرأس ، وزعت عليهم العمل، جزء منهم يذهب فى طريق الرسوة والجميل ولو قبض عليه يمكن أن يدعى أنه ذاهب إلى الجبانة، وذلك لأن المعسكر قريب من طريق المدافن ، وهكذا ، واتفقنا أن نلتقى جميعا غدا ، ولاحظت حماسا شديدا واندفاعا للقيام بهذا العمل.

انصرفوا جميعا ، وواصلت الجلوس مع عبد المحسن وتدارسنا الموقف ، الناس مرهقة لدرجة كبيرة من الهزيمة، الانجليز يقدمون كل يوم مغريات للتعاون والعمل، وصل الأجر الذى يعرضه الانجليز على العمال إلى عشرة أضعاف الأجر الذى يحصلون عليه يوميا ، تتجمع فى الأحياء، بعض التنظيمات للمقاومة، وتصدر هذه التنظيمات منشوراتها بخط اليد، هذه التنظيمات تسمى نفسها (اليد السوداء هأتا شاما. المنتقمون الأحرار ، الانتقاميون ، ج.س(جيش سرى) ثم اللجنة العليا للمقاومة الشعبية. وهى تابعة لتنظيمنا السياسى، وقد وزعت منشورا

مكتوبا على الآلة الكاتبة طالبت فيه الناس بالامتناع عن العمل أو التعاون مع العدو وحذرت الخونة من الانتقام.

***

ذهبنا إلى مقهى آخر ، مقهى ريڤولى ، التقيت بمجموعة أخرى من الزملاء الذين يعرفونني وينتمون إلى الحزب الاشتراكى (مصر الفتاة سابقا) وكان يجلس معهم شاب لا أعرفه تحدثت معهم عن أهم واجب الآن وهو توحيد كل الذين يتحركون ويقومون بأعمال المقاومة مطلوب توحيد كل الجهود تحت إطار تنظيم واحد ، قالوا إن لديهم مطبعة ، وتنظيما يسمونه ج.س أى جيش سرى، واطلعت على عدد من المنشورات التى أصدروها، وكانت طريقتهم فى طباعة المنشورات وكتابتها عقيمة ، فهم يطبعون كميات منها دفعة واحدة ، ثم يوزعونها على دفعات وخلال أيام ، ولم تكن صياغتها متمشية مع الأحداث اليومية بل كانت مجرد كلمات إنشائية لرفع الروح المعنوية ومطالبة الأهالى بالاحتفاظ بالسلاح لحين صدور توجيهات أخرى.

شرحت لهم دور المنشور وأهمية أن يرتبط بأحداث الساعة حتى يكون له تأثيره على الناس، وأهمية أن يناقش المشكلة الملحة الآن، فاليوم مثلاً المشكلة هى مشكلة العمل مع العدو وأهمية رفض هذا العمل الذى يجب أن نسميه تعاونا مع العدو، والتعبئة يجب أن تكون فى خدمة المعركة وعلى نفس درجة مستوى قدرة الجماهير ، فلا أطالبها بالهجوم وهى مهزومة ، وإنما أطالبها بأشياء صغيرة تنمو وتكبر مع الوقت - قالوا ليست لدينا تعليمات وأنهم ينتظرون هذه التعليمات من قيادتهم فى

القاهرة، قلت لهم إننى واصل توا من خارج بورسعيد، وطلبت منهم مقابلة المسؤول عن تنظيمهم ، وكنت استطيع أن أطلب هذا لأنهم يعرفوننى جيدا ويثقون بي، وسبق أن عملت معهم خلال معارك الفدائيين عام ١٩٥١ وما بعدها.

أشاروا إلى شاب فى العشرينيات اسمه الحركي حسني، شعرت أنه ضابط بالجيش ، لونه أبيض، ملامحه فيها وداعة وطيبة، له شارب أنيق وحواجبه كثيفة يرتدى بنطلونا وقميصا ، يتكلم بهدوء وعينه مسددة إلى الأرض، غير مدرب على الحديث، خجول لدرجة كبيرة (عرفت فيما بعد أنه ضابط فى الصاعقة اسمه جلال).

تعارفنا ، قلت له: إننى أحد ممثلى الشيوعيين فى بورسعيد وإن الذين يجلسون هنا يعرفوننى جيدا ، وطلبت منه الوثوق بى ، وأن نتعاون جميعا ، قال إنه ينتظر تعليمات من القاهرة، وطبعا لم أقل له إننى كنت منذ يوم واحد فى القيادة الشرقية لأن التعليمات التى كانت لدى أن أخفى هذا تماما ، وقال علينا أن ننتظر قليلا.

بدأت الشمس تغيب، واقترب حظر التجول ، والناس تسرع الخطى وتجرى ، والشوارع تخلو من المارة، وهذا شيء غير عادى فى بورسعيد ، ففى الأيام العادية يظل الصبية الصغار يتجمعون في الشوارع ويلعبون الكرة ، ويلعبون لعبة بور سعيدية مفضلة تبدأ بنداء (ولالوى!)، هذا النداء يجمع الأطفال الكبار والصبية فى هذا التوقيت بالضبط ليلعبوا الكرة (الشراب)، ويملأ الشوارع ضجيج اللعب والحركة والحياة.

***

اقتربت ساعة حظر التجول والناس يهرولون إلى بيوتهم، وأنوار البيوت تكاد تكون مطفأة لا يخرج غير بصيص ضئيل منها ، ويخشى الناس حتى النظر من النوافذ حتى لا تصيبهم رصاصة طائشة ، والصمت يخيم على الحياة ويكبسها ويضغطها ويحيل لونها إلى سواد صامت مضن.

أحيانا كانت تشق الصمت صرخة استغاثة وسط حظر التجول، وسط الهدوء ، وكانت صرخة الاستغاثة تشق أمن البيوت وتحيلها إلى فزع وخوف وتوتر ، ويدرك الناس معنى هذه الصرخة يدركون أنها مقاومة من امرأة يحاولون الاعتداء عليها في جوف الظلام.

في هذه الليلة في العاشرة مساء ، وسط الصمت الكابي الشديد شقت السكون صرخة واعقبتها صرخات من امرأة تقاوم، وصوت باب من أبواب الشرفات يفتح بعنف ويكاد ينخلع وامرأة تقف في الشرفة تصرخ بكل أعصاب حنجرتها الفزعة (الحقوني) ثم أعقبها صوت رصاصة مكتومة.

فتحت كل النوافذ واطل الناس وهم يحسون بالعجز عن النجدة ، فلا أحد يستطيع أن يخرق حظر التجول دون أن يواجه الموت المؤكد قبل أن يصل للنجدة.

انتهت الاستغاثة وسمع الناس صوت صراخ مكتوم ونهنهة بكاء وكأن أحدا قتل وسط هذه الأحداث.

ويحكي الناس قصص هذه الصرخات حيث يدخل الجنود الفرنسيون أحد البيوت ويطلبون المرأة من زوجها لتطبخ لهم،

فيرفض الزوج ويقاوم فيضربونه بالرصاص أمام زوجته وتؤخذ بالقوة وهي تقاوم وتضرب.

وفي الصباح فكر الناس في حل أو طريقة لوقف هذه الدناءات ، وذهب وفد من الأهالي وقابلوا القائد الفرنسي وطالبوه بمنع هذه الحوادث، ووعدهم القائد بالسيطرة على جنوده ومع هذا كانت تسمع الصرخات عندما يغيب الناس في جوف ظلام حظر التجول الذي يحاصرهم ، وعندما يسجن الأهالي كل ليلة يحدث الاغتصاب والاعتداء والقتل.

***

ذهبت حسب موعدي في الصباح إلى مقهى الطناحي، ووجدت جميع الشبان الذين كلفتهم بالأمس بجمع المعلومات قد حضروا ، كانوا عشرة شبان ، وكانت وجوههم جميعا تنطق بالحماس والقدرة والفرح.

الناس تتغير وتتحول في لحظات إلى كائنات أخرى واحد من الشبان الذين ساعدونا طالب بالتوجيهية (الثانوية العامة الآن) ومعروف بأنه "روميو"، ومن النظرة الأولى لا يمكن أن يعهد إليه إنسان بعمل جاد.

ولكن المعركة غريبة حقا، تخلق على الفور قدرات خاصة ، وتبرز في الحال أخلاق وإمكانات جديدة، هذا الشاب مثلا ظل طول اليوم يواجه أكبر تجمع للأعداء في ميدان المحافظة وتصرف بذكاء خارق ، وظل يعد العربات التي تدخل والتي تخرج ويسجل العلامات ، ويرسم اللافتات ، وجاء بحصيلة نادرة من المعلومات عن العدو، وتعرض للقتل وللقبض عليه.

الاسطى كامل العامل البسيط رئيس نقابة اسو للبترول الأسمر البالغ من العمر ٣٧ عاما و الذي لم يتزوج مفضلا رعاية أمه وإخوته الصغار، أخذ عربة وذهب إلى منطقة الرسوة حيث معسكر الانجليز وحيث توجد هناك شركات بترول إسو وسوكونى فاكوم وشل ، واستطاع أن يحصى عددا كبيرا من الجنود وعرباتهم ودباباتهم ورأى مجندات إنجليزيات يلبسن "الشورت"!

محمد الشاب المتردد الذى كان يخشى أى ارتباط بنا ، والواقع تحت تأثير أبيه الذى كان يضخم له خطورة الارتباط بنا اليوم كان متحمسا لدرجة الاستعداد للموت، وطلب بالحاح أن نقبله فى صفوفنا ، وعرض علينا أن يستخدم رونيو وآلة كاتبة بالشركة التى يعمل بها رغم المخاطر التى قد يتعرض لها ، وعندما رحبت بانضمامه إلينا كان سعيدا لأقصى حد.

ونحن نناقش المعلومات التى حصلت عليها هذه المجموعة، وزع الانجليز بالطائرة منشورا باللغة العربية الركيكة على ورق أحمر وأصفر وأخضر جاء فيه :"يا أهالى بورسعيد لقد ترككم جيش ناصر ولم يدافع عنكم وهرب الضباط، أين اختفت طائرات ناصر الميج، لقد تركوا المدينة بغير دفاع ، إن ناصر وعصابته من الضباط يمرحون الآن فى القاهرة". اتفقنا أن نلتقي غدا ، بعد أن أخذت التقارير.

***

التقيت بصلاح دهب عضو اللجنة العليا للمقاومة، ناقشنا مشاكل العمل، وتشكيل لجان المقاومة فى الأحياء والشوارع الكبرى، ولكن الأمر يواجه صعوبة شديدة، ذلك أن الناس

مازالوا ممتلئين باليأس والضيق والاحساس بالهزيمة والخوف طبعا ، فهم يواجهون يوميا ومن خلال حياتهم اليومية القوة الغاشمة البارزة فى الشوارع وفى الحياة اليومية.

اتفقنا على أن الأمر يحتاج فى البداية إلى معارك صغيرة تحرك السكون البادى على السطح، وتعطى القدرة والثقة على مواصلة المقاومة.

بالأمس مرت عربة بميكروفون أذاع منها الانجليز بيانا (ممنوع التجمعات نهائيا أى تجمع سيتعرض للضرب بالرصاص) - وذلك ردا على التجمعات التلقائية التى تحدث فى العادة فى شوارع بورسعيد.

ففى كل حى عصرا تدور مباريات الكرة "الشراب" فى كل شارع بين الشباب الصغير ويقف الأهالى للفرجة (وهذه عادة بورسعيدية) ، وقد أفزعتهم هذه المباريات إلى درجة أن الدوريات الانجليزية كانت ترصد هذه المباريات والتجمعات وتفضها وتمنعها ، ولكن الناس كانت تعود للتجمع مرة ثانية عندما تختفى الدورية.

فكرت اللجنة العليا أن تكلف لجانها القاعدية فى الشوارع والأحياء بتنظيم هذه المباريات وتشجعها ودعمها لخلق وتجميع روح المقاومة من خلال هذه الأشياء الصغيرة.

***

طبعت الجبهة المتحدة ووزعت منشورا يرد على المنشور الذى وزعه العدو، تحدث عن مقاومة الجيش البطولية فى الدفاع عن بورسعيد ، وسرد عددا من الوقائع والمواقع ، وتحدث عن بطولة

المدفعية وعن الشهداء من الضباط والجنود الذين استشهدوا خلال الدفاع عن المدينة واختتم المنشور بشعار عبد الناصر (سنقاتل ، سنقاتل) الموت للأعداء، - عاش جمال رمز المقاومة).

المشكلة التى تواجهها الجبهة هي الورق، قلت لصلاح سنجمع كل ورقة بيضاء تصلح من بيوتنا ، أنا لدى بعض الورق ، ومحمد أيضاً يستطيع أن يحصل على كمية من الورق من شركة الفحومات التى يعمل بها ، وتساءل صلاح هل من الممكن أن نعتمد على محمد هذا وعلى العناصر المشابهة التى عاشت طول عمرها مترددة وتحمست فجأة من حرارة المعركة، وكان رأيى أننا يجب أن نتعاون مع كل إنسان متحمس للعمل، وخلال المعركة سيتضح معدن كل العناصر وفى الوقت المناسب من الممكن استبعاد أى إنسان.

وناقشنا بعض المعلومات التى حصل عليها صلاح عن التموين واحتياجات المدينة وموقف الإدارة المحلية وافترقنا.ولعب محمد الضو دورا بارزا في اخفاء السلاح

***

استطعت أن استغل كل دقيقة فى الحركة بين اللجان المختلفة وفى الاتصالات مع الناس حتى جاء وقت حظر التجول ، ذهبت إلى منزلى ، وعكفت على التقارير واكتشفت أن لدى كمية ضخمة من المعلومات غنية وغزيرة ، وأدركت كيف يمكن أن تواجه مجموعة صغيرة مخلصة ومتحمسة وكيف تستطيع فى أقصر وقت ممكن أن تنجز أكبر الأعمال وأخطرها.

هذا العمل الذى تم فى يوم واحد كان يحتاج إلى شهر على

الأقل، وكانت المعلومات على درجة عالية من الدقة خصوصا عن قوات العدو، وكان تقديرنا لقوات العدو هو ٦٥ ألف جندي واتضح بعد ذلك أنهم أكثر قليلا ، والرقم مقارب جدا لما استطعنا أن نقدره خلال عمل يوم واحد وبلا أى إمكانيات.

واستغلت هذه المعلومات فى الأمم المتحدة ، واستطعنا أن نحدد أماكن الطائرات ورسمنا خريطة لبورسعيد عليها توزيع القوات وأماكن تجمعاتها وحجم كل تجمع ونوعه بالتفصيل.

وكذلك عن الحالة المعنوية لأهالي بورسعيد ، وعن كمية التموين الموجودة بالمدينة ، وأنها تكفى لمدة شهر حسب تقدير مراقب التموين ، وعن الاحتياجات أدركنا أن هناك حاجة شديدة للخضروات، وحاجة أيضاً إلى النقود لأن البنوك أخفت العملة الموجودة فيها خوفا من نهبها ، واقترحنا فى التقرير أن يصرف المحافظ بالاتفاق مع البنوك مرتبات الموظفين وعمال الشركات وإعانات للأهالى.

وكتبنا أيضاً أننا فى حاجة ملحة وسريعة لمجموعة من الكادر السياسى المدرب عسكريا من القاهرة.

انتهيت من كتابة التقرير بعد أن استغرق ذلك الليل كله، وفى الصباح ذهبت إلى الحاج محمود الصياد فى محله وكان بيننا موعد، وسلمته التقرير ليسلمه للقيادة الشرقية بالمطرية.

فى هذا اليوم أصدرت الأمم المتحدة قرارا بالانسحاب ، قررنا أن نطبع منشورا نعلن فيه تأييدنا للقرار وفى الوقت نفسه نطالب الأهالى باليقظة وبألا يستكينوا للقرار ولابد من الاستمرار فى المقاومة لأنه لا يوجد ضمان لتنفيذه على المعتدين ،

وتحدثنا عن سوابق المعتدين فى عدم احترام قرارات الأمم المتحدة.

كان لابد من مواجهة حازمة للأمثلة القليلة التى تحدث، وتأخذ شكل التعاون مع العدو حتى لا يستفحل الأمر.

***

وكان قد تكرر في منشوراتنا التحذير من التعاون مع العدو ووعدنا بالعقاب الصارم ومن الطبيعى أن قدم أمثلة لهذا العقاب الصارم، وفى ذلك اليوم كان هناك رجل اسمه (القاضى) يتعامل معه الناس على أنه شبه معتوه وضعيف العقل، ولكنه أفشى سرا مهما ذلك أنه رأى مجموعة من الشباب يدفنون أسلحتهم في القناة الداخلية وأبلغ العدو بمكان السلاح.

قبض عليه الأهالى وكان من بين الذين قبضوا عليه أخوه نفسه، وقيدوه بالحبال وسكبوا عليه كمية من الجاز، وأشعلوا فيه النيران وسط الشارع، جاءت دورية انجليزية وأخذوه وهو يحتضر ثم أعادوه إلى نفس المكان كتلة بشرية محترقة مشوهة.

***

وكان هناك موظف فى قسم ثانى ببورسعيد اسمه "فضل"، عندما دخل الانجليز المدينة ركب معهم عربة وأذاع باسم المحافظ بيانا كاذبا وطالب الأهالى بتسليم السلاح.

هذا الرجل معروف أنه (مبصبصاتى) يحترف الغزل الرخيص، وكان يسكن فى حجرة على سطح أحد المنازل وهو أعزب رغم أنه يقترب من الأربعين إلا أن سلوكه كان مغيبا.

متعطر دائماً، يعيش وحده، ليس له صديق، يجلس على المقهى وحده، يمسك (منشه) يدها من العاج وكانت النساء

تسخر من شدة تلميعه لنفسه ولشعره، وعندما كان يشعر بأن إحدى سيدات العمارة تصعد للسطوح الذى يسكن فيه لقضاء أخذ الأغراض، كان يستعرض نفسه أمامها بطريقة مبتذلة، واستفزت فى إحدى المرات إحدى السيدات وأنهالت عليه (بالشبشب) وهو يصرخ من فداحة الضرب.

ذهب الأهالى إلى منزله فى شارع كسرى ، وصعدوا الدرج وهم يصرخون (فين الخائن ابن الكلب..) وتجمع الناس حول البيت ، ولم يحاول أحد التدخل أو الدفاع عنه أو يقول كلمة لتبرير مواقفه.

هجموا على السطح بعد أن قفل الباب وهو يصرخ (الحقونى، يا بوليس) كسر الأهالى الباب بأقدامهم وحطموا باب حجرته واقتحموها ، والغريب أنه كان أنيقا أيضاً فى هذه المرة وهو يرتدى طربوشه الأحمر الفاقع ، ووجهه أصفر ، ويختنق بالذعر الرهيب وجسده كله يرتجف ويرتعش ، وبصوت مختنق كان يقول (حرام عليكم أنا برئ) لم يهتم بكلامه أحدو جذبوه من ملابسه وهم يقولون (تعالى يا ابن الكلب يا قذر..)، حملوه بين أيديهم من يديه ورجليه وهو متصلب ومتشنج ، وساروا به لحتى سور السطح، وألقوا به من حالق.

صوت ارتطامه بالأرض رهيب ومفزع ، صمت رهيب، سكنت الدنيا لحظة، تشرب فيها الناس برعب وجدية هائلة ما حدث، لم يكن فى السكون بعد صوت الارتطام غير صوت غير إنسانى، صوت حيوان يئن من بين عظام محطمة لا يمت إلى البشر بأى صلة، ولكنه صوت مخيف ينفذ إلى النخاع.

رغم أن البيت كان محاطا بعشرات الناس بل أكثر من مائة إنسان، لم يفكر أحد أن يتلقاه، بل على العكس كلهم ابتعدوا قليلا ليتيحوا له أن يسقط، وليفسحوا مكانا للسقوط ، نزل الدم مختلطا بعرقه من الجثة الممزقة. مضت لحظات ، اقترب من الجثة أحد الواقفين وبصق عليه وسار فى طريقه، بدأت الناس تبصق وبعضهم يركل الجثة بقدمه، إختفى الاشفاق والتبرير والرحمة من القلوب جميعا.

كانت الحادثتان بمثابة إرهاب لكل من تساوره نفسه بالتداعى أو الانهيار فى قلب الصفوف ، وكان معنى أن تقول بعد ذلك فى أى منشور: الموت للخونة! كان هذا معناه أنك تعنى بالفعل ما تقول وأنك جاد فيما تتوعد به.

المظاهرة

سيصل البوليس الدولي اليوم إلي بورسعيد ، ومهما كانت الظروف لابد أن يتجمع أهل بورسعيد كعادتهم لمشاهدة الحدث ، فكرنا أن نستفيد من هذه الظاهرة ومن هذا الحادث وقررنا أن نستقبل البوليس الدولي بمظاهرة، وأن هذا لابد أن يعطي دفعة إلى الأمام للجماهير.

اجتمعنا . حشدنا كل قوانا من الشباب، جمعنا أكبر قدر من صور عبد الناصر، لصقنا عدداً منها على لوحات من الخشب وأصبحت كاللافتات، عملنا لافتات من القماش كتبت عليها الشعارات: يسقط الاستعمار، عاش جمال رمز المقاومة - الموت للمعتدين - عاشت وحدة الشعب والجيش والحكومة - كتبنا الشعارات بالفرنسية والإنجليزية والعربية، أخفينا هذا كله وطويناه ، وزعنا حملة اللافتات والشعارات فى أماكن متفرقة بين الناس المتجمعة فى محطة السكك الحديدية ، مئات من الرجال والنساء والأطفال يقفون فى انتظار رؤية البوليس الدولى.

وصلت قوات البوليس الدولي، ارتفعت اللافتات فى الحال رفعنا أحد زملائنا على الأكتاف وهتف عاش عبد الناصر ويسقط الاستعمار ، فوجئ الناس جميعا وذهلوا ، ردد الهتاف زملاؤنا المنبثون وسط الناس، كان الرد خافتا وضعيفا وبأصوات مجموعة صغيرة من الناس الواقفين، استمر الزميل المرفوع على الأكتاف يهتف، علا صوت الناس قليلا ، والقسم الأكبر من الواقفين وقف متردداً، وبعض الناس ابتعدوا إلى الوراء قليلا، والبعض الآخر خافوا وتراجعوا وهم ينظرون وراءهم ليروا ماذا سيحدث.

استمر الهتاف والأعداد التى تردد الهتاف تتزايد قليلا قليلا،

كل هذا لم يستغرق أكثر من دقائق قليلة، ارتفع المزيد من صور ناصر ، اشتد هتاف الناس، وبدأ يصاحبه التلويح بالأيدى تشجيع الناس وازداد عدد المرددين لهتافاتنا.

سارت المظاهرة في شارع مصطفى كامل فى اتجاه القناة ، والذين انفضوا من البداية انضموا إلى المظاهرة عندما سارت وتحركت ، كل خطوة كنا نكسب عشرات ومئات من الناس، سد جنود العدو الشارع أمامنا، وواصلنا السير، تقدمنا، اضطروا أن يفسحوا الطريق أمامنا ووقفوا على جانبى الشارع، ازدادت المظاهرة قوة وأصبح الهتاف كالرعد يهز الأرض ويجمع الناس، دخلنا بالمظاهرة أحد الشوارع الرئيسية وهو شارع فؤاد وبعد القناة مباشرة، اصطف العدو على طول الطريق وهو يحمل السلاح، تشجع الناس، كانوا يهزون أيديهم ويلوحون بها فى وجوههم ويرفعون صور عبد الناصر ويضعونها فى وجوههم ويهتفوا ناصر - ناصر.

كان الجنود الانجليز بعضهم يبتسم مذهولا والآخر جامد الملامح أما الناس فقد عادوا فى الحال إلى اللحظات الأولى من المعركة إلى الحماس والرغبة فى القتال والتحدى والاستخفاف بالموت، كانت الشرفات ممتلئة بالناس الذين يصفقون.ويهتفون ويلوحون وانضم إلينا كل الجالسين على المقاهى والواقفين فى المحلات والسائرين وكل إنسان يلتقى بنا ينضم إلينا.

وصلنا إلى شارع كتشنر على البلاج أمام ثكنات الجيش المصرى التى احتلتها القوات الانجليزية وعلى طول الطريق صدى صوت المظاهرة يتردد فى جنبات الثكنات ويهز القوات المحتلة

وفى ميدان المحافظة تجمع الانجليز بمدافعهم وفوق دباباتهم وصوبوها نحو المتظاهرين، وأخذ الانجليز وضع الاستعداد لإطلاق النار، وواصلت المظاهرة سيرها بلا تردد والصوت يزأر ويعلو والأيدى تهتز فى وجوه المعتدين - مرحبا بالموت فى سبيل بلادنا - الموت للمعتدين، سننتقم لشهدائنا - عاش جمال رمز المقاومة - والجماهير تلوح بصور عبد الناصر وتهتف ناصر ناصر.

* * *

وفجأة اخترق الصفوف الأولى من المظاهرة صبى صغير يجرى مندفعا نحونا عمره (١١) سنة يرتدى بنطلونا طويلا وقميصا وحذاء كوتيش ويحمل صورة ضخمة بإطار مذهب لعبد الناصر ويبدو أنه انتزعها من أحد المحلات، وظل يخترق الصفوف حتى منتصف المظاهرة حيث يسير حملة الأعلام واللافتات والصور وصفق الناس له وارتفع حماسهم وهم يرفعونه على أكتافهم وكان مشهدا رائعا لطفل يهتف بحنجرته الرفيعة الحادة وهو يحمل الصورة ذات الاطار الذهبى وسط المتظاهرين، واشتعل الحماس وتحول الهتاف إلى كلمة واحدة كالرعد، يرددها الآلاف ناصر ناصر.

دخلت المظاهرة الملتهبة بجنون إلى شارع محمد على (فى هذا الشارع قاوم الشعب مقاومة بطولية فى بداية الاحتلال، وفى هذا الشارع ارتكب الانجليز خديعتهم الإجرامية بالدبابتين التى راح ضحيتها المئات ، فى هذا الشارع كانت الجثث لا حصر لها ملقاة والجرحى يصرخون من الألم ومن الاحتضار (كان شارع البطولة والخديعة والموت) واليوم الناس يهتفون ويعلنون استمرار المقاومة

والرغبة فى الانتقام للشهداء.

وفى تقاطع شارع محمد على وشارع الثلاثينى اخترقت المظاهرة سيارة صفراء تسير بسرعة هائلة ، وامتدت من داخلها يد أطلقت رصاصتين ، وهربت العربة ، وسقط الطفل حامل الصورة، وحدث ذعر، وتفرق عدد من الناس ، وتجمع عدد آخر ، وفوجئ الجميع بطفلين يحتضران ، حسن حمود الذى كان يهتف ويمسك بصورة عبد الناصر وزميله محمد رضوان، وحمل عدد من الناس رضوان ، وحمل عدد آخر حسن ورفعوه على أعناقهم بعد أن سقط على الأرض وتلطخ وجهه بالدم والتراب، وجرى به الناس من شارع سعد زغلول ليصلوا به إلي المستشفى الأميرى والدم يسيل من حسن متدفقا على صدره ويسقط على الذين يحملونه ووقفت عربة ونزل منها عدد من الجنود الذين أخذوا وضع الاستعداد لضرب النار وسدوا الطريق، اضطر الذين يحملون حسن المصاب أن يغيروا طريقهم ، وهم يجرون بأقصى ما لديهم من سرعة ، وطالت المسافة للمستشفى، وتجمعت المظاهرة مرة ثانية، ودخلت فى شارع فاروق وعلاها الهتاف من جديد (الموت للأعداء، سنقاتل سنقاتل).

ولكن أعداداً كبيرة من الناس كانوا يجرون خلف الذين يحملون حسن حمود ومئات منهم يلهثون ويجرون ويأملون ويتمنون أن يلحقوا وأن ينقذوا الفتى الصغير الذى قادهم وألهبهم، كان مشهدا جنونيا غريبا من المستحيل أن يتصوره أحد.

المشاعر المشحونة الراجية الأصوات المتقطعة من الجرى واللهاث وهى تدعو (يارب يارب حوش عنه الموت دا لسه صغير انتقم

يارب انقذه يارب).

ووصلت جموع الناس إلى المستشفى ودخلوا بحسن الذى أفاق لحظة وفتح عينيه وسأل : فين الصورة ، قالوا له :(أهه موجودة) وأغمض عينيه ولم يفتحهما مرة ثانية.

خرج الناس ورؤسهم منكسة مطأطأة من الحزن والألم والرغبة فى الانتقام.

كان موته شرارة أشعلت فى الناس الحقد والغضب والمقاومة كما كان دخوله المظاهرة شرارة ألهبت الحماس والجسارة والجرأة والإقدام.

اقترب حظر التجول، تفرق الناس، النفوس تغلى غليانا حقيقيا ، الناس قد هبوا ويريدون أن يفعلوا أى شىء وأن يقدموا المزيد من التضحيات وأن ينتقموا. حركت المظاهرة بأحداثها ، ببدايتها ونهايتها السكون وألغت الصمت وجرى الدم فى العروق واتصلت الأوردة والشرايين بعضها ببعض وتماسكت ، وأزاحت الركود والخوف والانكسار والهزيمة وأبرزت الصمود والإقدام وإمكانية الحركة وأعادت للجماهير حيويتها وأكسبتها روحا جديدة.

* * *

فى اليوم التالي، أعلن الإضراب العام ، أغلقت المحلات والمقاهى جميعا ، قدم الانجليز إنذارا إذا لم تفتح المحلات سيفتحونها بالقوة وتصادر البضائع الموجودة بها ويعتقل أصحابها ، لم يفلح الانذار فى إفساد الإضراب الذى استمر طول اليوم ولم تعمل غير المخابز.

بدأ الإضراب تلقائياً ، عندما شعرنا بمبادرة الأهالي، نظمنا الإضراب ودعونا بقية المحلات إلى الالتزام به، ناقشنا عددا من التجار ونجح الإضراب.

وصلنا كادر ثورى له وزنه من القاهرة مدرب تدريبا سياسيا عاليا (من الشيوعيين) سعد رحمي، أحمد رفاعى ، أحمد شوقى، سعد عبد اللطيف وعبد المنعم شتلة وعدد آخر من الزملاء. وصلت العقلية المنظمة والسياسية للمعركة.

* * *

جلسنا نتدارس خطة العمل ، قررنا تقسيم نشاطنا إلى قسمين جغرافيين، القسم الأول حى الأفرنج وبورفؤاد والقسم الثانى حى العرب والمناخ فى بورسعيد، نجحت عملية توحيد كل التنظيمات التى تكافح ضد العدوان فى جبهة واحدة بعد أن كثفنا حملتنا فى مناقشة جميع قيادات وأعضاء هذه المنظمات ، تشكلت لجان فى جميع الأحياء والشوارع الكبرى، وتشكلت قوات ضاربة فدائية.

وكان الشعار الرئيسى هو "جبهة متحدة لكل الشعب"، وقبلت كل التنظيمات هذا الشعار (ج.س. اليد السوداء، الانتقاميون ، وتنظيمات أخرى) وتردد فى الاشتراك منظمة تابعة لهيئة التحرير وأصدرت الجبهة المتحدة بيانا تعلن فيه أنها قد وحدت صفوفها فى جبهة واحدة ووقع على المنشور كافة المنظمات.

شعر الانجليز بخطورة توحيد كل المقاتلين، وبدأ الطابور الخامس يشيع أن هذه الجبهة (جبهة شيوعية) جبهة الملحدين والكفرة ، وبلغ اهتمام الانجليز أقصاه لتخريب هذا التجمع وأصدروا منشورا بهذا المعنى يهاجم الجبهة ووزعوه بالطائرة.

والغريب أن يهاجم الجبهة ويحاول أن ينال منها تحت نفس شعار الانجليز ووصفها بالجبهة الملحدة الشيوعية (الإخوان المسلمون وفلول الأحزاب القديمة

اجتمعت الجبهة وأصدرت منشورا يدافع عن الشيوعيين المنضمين للجبهة وقال المنشور: إن هذه الجبهة جبهة كل الشعب المقاتل ضد الاستعمار والعدوان بصرف النظر عن آرائهم الخاصة أو أفكارهم، إنها جبهة الوطنيين المعادين للعدوان والمناضلين ضده، والشيوعيون وطنيون وأعداء الأستعمار، وقاتلوا ويقاتلون ضده....)

وصل فى هذا الوقت عدد من ضباط المخابرات الذين لعبوا دورا كبيرا فى المعركة، وصل محمد أبو نار وسمير غانم وصلاح زعزوع وغيرهم ووصل أيضاً الرسام الصحفى عبد المنعم القصاص.

وعقدت لجان الجبهة والضباط المؤتمرات فى المقاهى والأحياء للتوعية ولرفع الروح المعنوية والدفاع عن الجبهة، واستطاعت هذه المؤتمرات والاجتماعات أن تقنع عددا كبيرا من المعارضين والمترددين وكسبهم للجبهة.

* * *

مرت عربة انجليزية تحذر الناس من التجمع وتهدد بإطلاق النار على أى تجمع فى أى مكان، وكان يذيع هذا التحذير من داخل العربة بالميكرفون أحد المالطيين (وهؤلاء المالطيون يظهرون دائماً فى الأزمات ويلعبون دورهم ضد الشعب المصرى طوال التاريخ

الحديث والقديم .. دائماً).

كان المالطى يذيع بلغة عربية ركيكة (ممنوع ناس كثير يمشوا مع بعض، أكثر من ثلاثة ممنوع خالص ، حنضرب بالنار على طول).

ثم يعقب هذا التحذير أغاني مصرية وكان الأهالى يقابلون هذه الإذاعات بالسخرية والشتائم بصوت مرتفع، كانت الناس قد استعادت الثقة بنفسها ، وأقبلت على تنفيذ توجيهات الجبهة بجدية وحزم.

ازداد مرور الدوريات الانجليزية اللاسلكية فى الشوارع ، وكانت الدورية مكونة من ضابط أو جندى يرتدى خوذة ويعلق على أذنيه سماعتين وأمام فمه "بوق" ويحمل جهاز إرسال واستقبال على ظهره يمتد منه ايريال طويل حاملا سلاحه على كتفه وخلفه ستة جنود مسلحين ، وتسير الدورية فى الشوارع لمراقبة الأحوال والاتصال بوحداتها.

وبعد مرور عدد من هذه الدوريات التى تهدف فى الأساس إلى إرهاب الأهالى والضغط على تحركاتهم ومراقبتهم - فوجئنا بعدد من الصبية يرتدون "الجلاليب"، يتقدمهم فتى صغير يضع على رأسه طبق صاج وعلى أذنيه "علبة سلامون" مربوطة بسلك وعلى فمه علبة أخري، ويعلق على ظهره علبة من الصفيح مقلدا جهاز اللاسلكى ويبرز من العلبة عود من الحديد يرتفع إلى أعلى مثل الايريال.

ويعلق على كتفه قطعة من الخشب مستطيلة على غرار البندقية، وخلفه ستة أطفال مثله، وعندما كان الانجليز يشاهدون دورية الأطفال كانوا يجرون خلفهم مستفزين من سخرية الأطفال

بهم.

وقررنا أن نعمم فى الأحياء كلها فكرة الأطفال ولعبة الدورية وذلك لإفساد الأثر الإرهابى الذى يريدون أن يتركوه فى نفوس الناس.

قابلنى أحد الأصدقاء، وقال إن قنصل دولة صديقة استطاع أن يصور ما ارتكبه المعتدون من فظائع هم وحلفاؤهم فى فيلم ويريد أن يسلمه للمسؤولين فى القاهرة، وقد صور هذا الفيلم وهو يطوف بالشوارع ويتصل بالأهالى ويشجعهم ويجلس معهم ويرفع من معنوياتهم.وقد احضر لنا الفيلم المحامي ابراهيم حمود الذي سلمه لسعد رحمي ثم اخذته منه لتوصيله للمطرية

كنا قد أعددنا تقريرا آخر عن احتياجاتنا، وكنا نحتاج إلى قدر كبير من صور عبد الناصر وأشياء أخري، وكان على أن أحمل التقرير والفيلم وأسلمهما للمسئولين فى المطرية. وكان معنا شكري عبد الوهاب ومحمد الضو واحمد حجازي #وكان مقره في مخبز بلدي يعمل ويدرب ويقود عمال المخبز ومحمد الزند الذي اصيب برصاصة في كتفه خلال المعركة ومحمد سلطان سكرتير نقابة شل ومن ضباط المخابرات محسن لطفي السيد وصلاح زعزوع ومحمد ابو نار وغيرهم

* * *

ذهبت إلى القابوطى وقابلت الشيخ محمود الصياد وطلبت منه أن يوفر لى طريقة لعبور البحيرة والسفر إلى المطرية، وقال انتظر حتى أدبر الأمر.

أحمد حجازي الممثل والفنان حاليا

وقفت على شاطئ بحيرة المنزلة فى القابوطى وكان هناك عدد من المراكب ومجموعات كبيرة من الصيادين، وبعض الأهالى يشترون السمك، وقفت بجوار أحد المراكب بملابسى العادية أنتظر عم محمود الصياد.

كان الانجليز قد أقاموا دورية مستقلة بجوار الشاطئ للمراقبة، والجنود يسيرون بسلاحهم وسط الأهالى للمراقبة، وقف أمامى جندى انجليزى لايزيد عمره على عشرين عاما، ضعيف البنية جدا يكاد ينوء بحمل بندقيته، قال لى جود مورنينج! (صباح الخير) ترددت لحظة فى الرد عليه، سألنى عن الطقس قلت "كويس" وأنا أحاول "قفل" الكلام وهو يبتسم ويحاول الثرثرة معي، كنت أرد عليه باقتضاب وبملامح جامدة مقفلة حتى يبتعد عنى ولكنه اصر على الكلام، تحدث عن السمك وقال إن طعمه لذيذ جدا، ناداه أحد زملائه فتركنى وحمدت الله، جاء الحاج محمود الصياد وقال (يا للاتعالى، غير هدومك واستعد) ذهبت إلى منزله القريب من الشاطئ، خلعت ملابسى وارتديت ملابس الصيادين، وسرت مع الحاج محمود وأعطانى "مشنة" حملتها وقال لى (انتظر حتى لا يلاحظ الانجليز شيئاً وسأشير إلى مركب وعليك أن تذهب إليها وتركبها وأشار فعلا إلى مركب صغير، وفى لحظة انتظارى لإشارته جاء العسكرى الانجليزى الذى كان يتحدث معى منذ دقائق ودقق النظر فىّ وهو مذهول.

خفضت رأسي مسندا نظرى فى المياه كأننى أبحث عن شيء وقع منى، وقف لحظة، ثم هز رأسه ومط شفايفه ومشي، كنت مرتبكا جدا، استعدت نفسي، أشار الحاج محمود إشارته، خضت

فى المياه حتى وصلت المركب. نزلت وجلست فى القاع ، سارت المركب أحسست بارتياح شديد، وثقة هائلة، فهذه هى المرة الثانية التى أغادر فيها بورسعيد.

وصلت المطرية فى المساء، قابلت عددا من الضباط منهم أبونار ونعمان وزملاء لى من بينهم أحمد رفاعى وعبد المنعم شتلة، أعطيتهم التقرير، أكلت طعاما جيدا، قالوا اذهب إلى المنصورة الآن وكلفونى بشراء مطبعة رونيو وورق واستنسل وقلم صلب وطلبوا منى العودة فى نفس اليوم.

وصلت المنصورة والتقيت بزملاء آخرين هناك، واشترينا أربع "رونيوهات" خشب واشترينا الأشياء التى تحتاجها وعدت إلى المطرية.

فى المساء بدأنا نستعد للعودة إلى بورسعيد، كان معى شكرى عبد الوهاب ومنير موانى، لكن الضباط قالوا نستطيع أن ندبر مكانا لاثنين فقط، ركبت أنا وموافى.

وصلنا بورسعيد ومعنا معدات الطباعة.

نزلنا بملابس الصيادين ودخلنا وسط زحام الناس على شاطئ البحيرة إلى بيت الحاج محمود، ارتدينا ملابسنا، تركنا أدوات الطباعة فى منزله، واصلنا إلى بورسعيد، فى اليوم التالى عدنا وأخذنا صدر عبد الناصر والمطبوعات وبعض الصحف وأدوات الطباعة والأكلشيهات التى كان قد أعدها الفنان حسن فؤاد وعدد من الرسامين الذين كانوا يقيمون فى المطرية لتلبية احتياجاتنا.

* * *

من الضباط والجنود والصاعقة والزملاء والشباب وأشد الناس حماسا وقدرة من الأهالى تكونت القوات الضاربه.

الفدائى يركب دراجة وينطلق بها عادى جدا حتى يقترب من سيارة عسكرية داخلها عدد من جنود الداورية، يلقى على العربة والجنود القنبلة ويجرى بالدراجة بدأت العمليات الصغيرة، تكررت، وأصبحت مشاهد يومية عادية يراها الإنسان الذى يسير فى شوارع بورسعيد.

فى أحد الأيام فى شارع الثلاثينى الذى يتميز بوجود البواكى على الجانبين، وقف خلف أعمدة البواكى مجموعة من الشباب، وفى الجهة الأخرى على الرصيف الآخر وقفت مجموعة أخرى وفوجئ المارة فى الشارع بالقنابل تنهال على عربة ممتلئة بالجنود كانت تعبر الشارع. اشتعلت العربة وجرى بها السائق كالمجنون ودخل مدرسة كنيسة الأقباط، لكن الفرقة كلها كانت قد قتلت، واشتعل السائق نفسه، الذعر الذى استولى عليه جعله يندفع بالعربة ويدخل بها أى مكان، شاهد الناس ماحدث وواصلوا سيرهم بشكل عادى.

كانت دورية إنجليزية سائرة على الأقدام، إنهال عليها الرصاص فجأة من نفس المكان الذى احترقت فيه العربة.

أصبح الهجوم على العدو مسألة يومية وتحدث فى كل شارع وفى أى لحظة.

كانت تمر عربة إنجليزية بالقرب من مطار الجميل، قابلها من تحت البواكى مجموعة من الفدائيين من ناحية حتى العرب بالقرب من مقهى رأس البر ، وألقوا عليها القنابل اليدوية.،

التقطها الإنجليز وفى أقل من ثانية طواحوا بها إلى مصدرها، لكن مجموعة أخرى كانت تنتظرهم بالنبادق واصطادوهم بالرصاص.. واصطدمت العربة بعامود من أعمدة البواكى، وخرج لهم الفدائيون وأكملوا على الباقين.

* * *

جاء مع قوات العدو ضابط فى المخابرات الانجليزية اسمه وليامز، خطير جدا، عاش هذا الرجل فى بورسعيد حوالى عشرين عاما قبل العدوان بسنوات وكان يتكلم اللغة العامية بطلاقة كأحد أبناء البلد، ويعرف عددا كبيرا من الأهالى، ومعروف باتصالاته الكثيرة فى المدينة، وهو المسؤول الأول عن المخابرات خلال العدوان.

كان يمثل خطورة فعلا، فهو ينزل من عربته ويسير وسط الأهالى ويتحدث معهم كأنه واحد منهم ويركب عربته بدون حراسة من فرط امتلائه بالثقة والاطمئنان الشديد.واستطاع أن يصل إلى مكان يختبئ فيه سبعة ضباط مصريين من الصاعقة وكان هذا المخبأ عبارة عن عيادة خاصة للدكتور جلال الزرقانى، ووصل بجواسيسه لهذا المكان واعتقل الضباط.

ووصل إلى مكان آخر يختفى فيه عدد آخر من الضباط فى عيادة الدكتور جودة طبيب الأسنان واعتقل الضباط والدكتور.كان يستخدم المالطيين كجواسيس له وعدد من الفتيات الأجنبيات، وكانت العيادتان فى حى الأفرنج، وفى عمارات غالبية سكانها من الأجانب، ولعب بعض الأجانب والمتمصرين

دورا ضـدنا ، وعندمـا بدأوا فى الرحـيل اضطروا لأخـذ كل المتـعاونين معـهم من مـالطيين وفـرنسـيين وموسات أجنبيـات وجميع الذين تجسسوا لحسابهم.

* * *

وكـان من أبرز قـيـادات القـوات الضـاربة ضـابط البـوليس اليوزباشى (النقيب) عز الدين الأمير الذى كان يقـود عـددا من الأهالى يقومون بتنفيذ خططه (باعة صحف وباعة خبز، وبمبوطية فى البحر وطلبة وشباب وعمال وموظفين صغار وغيرهم من الناس الذى لم يكن لديهم عمل محدد..).

كان مـعروفـا عن وليامز أنه يتردد على بعض الأماكن بانتظام، ومن بين هذه الأمـاكن مبنى المباحث العامة الذى يقع فى شارعي فـاروق ورمسيس، وهو مبنى مكشوف بدون بواكى تسـاعـد على الاختـفـاء أو الضرب، وبجوار المبنى محل "خردواتـى" يملكه والد الشهـيـد الصـغيـر حسن حمود، ويعد المحل مكان واسع جزء من أرض مـهـجـورة (خرابات) وجزء منه سـوق للفـاكـهـة والدجاج والخضار.

ويصل وليـامـز كعادته بعد الظهر ليـمر على المباحث العـامة، ويقف فى انتظاره دائمـاً عـدد من الناس يحملون شكاواهم في أيديهم، شكوى من أحد المواطنين ضد جندى انجليزى اعتدى على منزله ونهب ما فيه من مال أو أثاث ، شكوى من أحد الملاك ضد عدد من الانجليز احتلوا عمارته وهكذا، ومن بين هؤلاء الشاكين

وقف شاب صغير عمره لا يتجاوز الثامنة عشرة بائع صحف يرتدى بنطلونا وقميصا، وجهه أسمر، تبدو على ملامحه الذلة والمسكنة والتهدم الشديد، وآثار جدرى فى وجهه ، وقف وسط أصحاب الشكاوى وفي يده رغيف كالسندويتش يقضم منه وداخل الرغيف قنبلة يدوية، ويده قابضة على الرغنيف والقنبلة وذراعها ، وحلقة القنبلة يستطيع إذا وضع الرغيف فى فمه ليقطم منه لقمة يستطيع أن ينزع بأسنانه الحلقة وتصبح القنبلة جاهزة للانفجار، وفى يده الأخرى ورقة مكتوب بها شكواه.

جاء وليامز بسيارته ، صعد مسرعا للمباحث العامة، وبعد فترة عاد إلى عربته، وبمسكنه وذلة قدم له الشاب ورقة الشكوى ، ووليامز ينظر فى الشكوى دون ارتياب كان الشاب يقضم من رغيفه ويشد حلقة القنبلة مع اللقمة، وليامز قاعد مركون على مقعد العربة الجيب ساقه فى العربة وساقه الثانية على الأرض، مد يده وأخذ الشكوى والقيت القنبلة بين ساقية داخل العربة، ورجع الشاب بسرعة ووقف وسط الناس بهدوء شديد وكأنه لم يفعل شيئاً.

هذا كله تم فى ثوان، انفجرت القنبلة ، سقط وليامز على الأرض والدم ينزف من بطنه بغزارة وكان يسير لحظة الانفجار رجل أجنبى عجوز أصابته شظية وقتلته.

«جاءت إحدى الدوريات بسرعة مع صوت الانفجار، وأمرت الناس بالابتعاد عن مكان الحادث، وكان من بينهم الشاب الذى ألقاها ، ذهب بهدوء وسار فى منعطف الشارع الضيق الذى يؤدى لشارع فرعون، ووصل إلى مكان السوق، واختفى فى الزحام.

نقل وليامز فورا بطائرة هليوكبتر إلى قبرص للعلاج، وهناك مات فور وصوله».

* * *

لا نقطاع الصحف القاهرية عن بورسعيد وللشوشرة التى يبثها الأعداء للتشويش على الإذاعة أصبح من الصعب سماع راديو القاهرة ومعرفة الأخبار. أصبحت بورسعيد فى أشد الحاجة إلى جريدة أو مجلة تصدر وبها أخبار القاهرة المهمة وتناقش المشاكل اليومية فى بورسعيد وتعبر عن كفاح الشعب وتعبئ الجماهير فى المعركة.

وبينما نحن نناقش ونبحث هذه المشكلة وصل أحمد الرفاعى وعبد المنعم القصاص ومعهم "ماكيت" كامل لمجلة شبه سرية، عمل ماكيت المجلة الفنان حسن فؤاد وزملاؤه الرسامين، وأصبح لدينا الآن القدرة لإصدار المجلة فورا، ومع الماكيت الجاهز الاكلشيهات المطلوبة ولم يبق غير أن نكتب ونطبع ونوزع، وهذه هى المهام التى نعرفها جيداً.

نشط الزملاء فى جمع الأخبار للمجلة، وتكونت هيئة تحرير من الزملاء أحمد رفاعى وعبد المنعم القصاص وصلاح دهب. جمعت المواد وقدم مخلوف مطبعته لتقوم بطبع المجلة اتفقنا أن يقوم منير موافى مع صبى المطبعجى بطبعها ليلا بعد حظر التجول بعد أن يقفلوا المطبعة على أنفسهم وهم بداخلها.

ذهب عبد المنعم وأحمد إلى المطبعة عصرا للإشراف النهائى قبل طبع المجلة وأثناء وجودهم هاجم المطبعة ضابط انجليزى ومعه ستة جنود مسلحين، وبمجرد أن دخلوا مثل مخلوف دورا رائعا، دور

الرجل الغاضب الذى يطرد زبائنه وهو يقول لهم بصوت عال (يا للا، مش فاضى..) واستطاع أحمد وعبد المنعم أن يفلتا بهذه الطريقة ، ودس أحمد فى جيبه وهو خارج مطرودا من المطبعة أكلشيه المجلة الذى كان موجودا على المنضدة.

قبض على مخلوف للاشتباه فى نشاطه هو وصبيه ومنير موافى ، وأغلقت المطبعة بعد تكسير أجزاء منها.

كانت ضربة هائلة موجهه للجبهة، بعد أن أعلن للناس جميعا أن مجلة "الانتصار" ستصدر أول أعدادها غدا ، كان علينا أن نصدرها فى موعدها بأى ثمن.

***

وعلى سطح بيت عبد المحسن بعد حظر التجول كان شكرى عبد الوهاب وعبد المحسن وعبد المنعم فى حجرة فوق السطح يطبعون المجلة على الرونيو الخشبي، وقد عانوا كثيرا من تمزق الشاش ودلق الحبر والأعصاب المتوترة ، ويقول عبد المحسن كلما رتبنا أنفسنا نتوقف ونعيد كتابة الأصل بالقلم الصلب مرة ثانية، سهرنا طول الليل حتى الصباح، وكلما سمعنا أصواتا أو خروشة على الدرج نتوقف عن العمل ونخفى ما أنجزناه، ولم تكن أسرته تعرف ما الذى يدور فوق السطوح، كان قد قال لهم إن بعض زملائه فاجأهم حظر التجول واضطروا للمبيت عنده حتى الصباح، ولكن أهله كانوا يتوجسون ويحسون أن شيئا ما يحدث فوق السطح.

***

وفى الصباح كنت أنا وأحمد شوقى وصلاح دهب ننتظر فى

مقهى الطناحى المجلة التى سنقوم بتوزيعها - وجاء القصاص وشكرى وعبد المحسن وعلى وجوههم ابتسامة الانتصار والفرح لانجازهم طبع المجلة، وكانوا مرهقين من التعب والسهر إلى أقصى حد.

طبعنا من العدد الأول ثلاثمائة نسخة، وضعوا فى سلال مغطاة بورق الصحف القديم وداخل المقهى كان كل واحد منا يحاول الحصول على أكبر نصيب ممكن ليوزعه.

وذهبنا إلى أقسامنا، وقمنا بتوزيعها على أعضاء اللجان، وبعد لحظات كانت المجلة فى أيدى الناس، وأخذنا الحماس ووزعناها علنا فى الشارع، والتف الناس حولنا يحاولون الحصول على نسخة، وحدثت مزايدات، وارتفع ثمن النسخة الواحدة من قرش صاغ إلى مائة ضعف إلى جنيه، ودفع أحد اليونانيين فى عدد واحد خمسة جنيهات، ولعبت هذه المجلة دورا كبيرا فى دعم معنويات الجماهير، وربطت أحداث القاهرة وما يجرى فى العالم ببورسعيد.

«وكان العدد الأول يتضمن فى الصفحة الأولى صورة عبد الناصر والعلم المصرى وكلمة «الانتصار» والمقال الرئيسى عن الوحدة الوطنية ومقال آخر لماذا نصدر الانتصار؟ لمحاولة ربط المعركة فى بورسعيد بالوطن كله، والصفحة الثانية خاصة بلجنة العمال ورفض عمال الشحن العمل مع العدو وموقفهم البطولى من مقاطعة المعتدين وأخبار تشكيل لجان العمال ودعوتهم لمواصلة معركة المقاطعة، وفى الصفحات الأخرى تحية لذكرى الشهداء وأخبار عن التموين ومقتطفات من مقالات وأخبار

الصحف القاهرية التى تصلنا منها أعداد قليلة جدا وبطريقة سرية».

خطــف

قبض على محمد مخلوف وحطمت مطبعته ولم تكن هذه أول مرة يقبض عليه ولا أول مرة تحطم فيها مطبعته، عمره ثمانية وثلاثون عاما، طويل القامة بشكل غير عادى، ملامحه طيبة. وبسيطة إلى أقصى درجة، لا يهتم بمظهره، بقميصه أو شعره أو بدلته التى لا يمتلك غيرها.. واحدة فقط لونها دائما بنى، شعره أسود وله شارب صغير، وكان من زعماء حزب «مصر الفتاة» فى بورسعيد، شارك فى العمل السياسى وهو طالب صغير السن جدا، واعتقل كثيرا جدا وفى جميع المناسبات والهبات، وهذا سر فقره، فهم لا يتركونه فى حاله يواصل حياته العادية عدة شهور وسرعان ما يقبض عليه، وبعد أن كان صاحب مطبعة اضطر لبيعها والعمل كعامل طباعة وأحيانا كاتب فى فندق، وأخيرا استطاع أن يكون هذه المطبعة التى كانت فى ذلك الوقت من أكبر مطابع بورسعيد، فى عام ١٩٥١ أثناء الكفاح المسلح فى بورسعيد كان من قادة هذا الكفاح واعتقل فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ بعد حريق القاهرة، وهو ضيف دائم على المعتقلات مع كل هبة وطنية تجده فى المقدمة، الآن هو من أعضاء منظمة (جيش سرى) التى انضمت للجبهة المتحدة فى بورسعيد، وقد وضع المطبعة كلها بالورق الذى وصل إلى أثمان خيالية تحت تصرف الجبهة بلا ثمن.

كانت المنشورات تصدر بخط اليد والآلة الكاتبة والرونيو وفى حدود ضيقة لا تزيد على ثلاثمائة نسخة، وبعد أن انضمت مطبعة مخلوف أصبحنا نطبع بالآلاف، حاول الإنجليز أن يكتشفوا المطبعة التى نطبع فيها منشوراتنا وفشلوا طويلا. أصدروا أمرا

بغلق جميع المطابع، وهددوا بالاعتقال والاستيلاء على أية مطبعة يشتبه فى أنها تساعد المقاومة، وهاجموا بعض المطابع وحطموا الحروف ليثيروا الذعر فى أصحاب المطابع، إلا أن مخلوف لم يخش شيئا ولم ترهبه هذه الإجراءات، وكان يسهر الليالى ومعه ابن أخته الصبى الصغير ليطبع المنشورات، وكان دائما يقول إنه لا يفعل شيئا، إنه فقط يؤدى جزءا من واجبه نحو وطنه.

* * *

لم نكن نستطيع أن نستمع إلى إذاعة القاهرة ولا أخبارها ولا نستفيد من دورها فى تعبئة الجماهير بالأغانى والخطب والأناشيد. ولكن محمد الطناحى صاحب المقهى المعروف باسمه استطاع أن يسجل على جهاز تسجيل داخل المقهى عددا من الأغانى الوطنية، وأصوات عربات الإنجليز وهى تصدر الأوامر(!!) وخطاب عبدالناصر فى الأزهر، واستطاع محمد أن يجعل للمقهى دورا يؤديه يعوض به دور الإذاعة الذى افتقدناه بسبب تشويش العدو.

وكان المقهى هو أحد مقار تجمع أعضاء الجبهة واللجان وشباب بورسعيد.

* * *

بعد القبض على مجموعة من الضباط المصريين قررنا خطف بعض الضباط الإنجليز لاتخاذهم رهينة للمساومة بهم على الإفراج عن الضباط المصريين المعتقلين، وكان «مورهاوس» ضابطا وسيما صغير السن له قيمة كبيرة بسبب قرابته للأسرة المالكة البريطانية، ولم تكن له أية قيمة أخرى أو وزن، ويبدو أنه

قد جآء مع العدوان للفرجة وإشباع هوايته فى التصوير، وكانت له حرية التجول والحركة فى بورسعيد، وكنا نراه دائما راكبا عربته ومعه الكاميرا يصور بها الأماكن والناس.

وفي أحد الأيام السيئة الطالع بالنسبة له ولحياته، كان سائرا يتجول بحرية شديدة فى شارع الثلاثينى، وفى الميدان الذى به سينما مصر اعترض طريق عربته صبى فقير يركب دراجة ويحمل فوق رأسه طاولة مرصوص عليها أرغفة خبز، وارتبك الشاب وسقط بالدراجة والخبز تبعثرأمام العربة، واضطر مورهاوس - وهو يشعر بالذنب - أن يتوقب بالعربة، فانقض عليه عدد من الشباب كانوا يختبئون خلف أعمدة بواكي سينما مصر والقهوة السعدية وحملوه بسرعة إلى منزل قريب من هذه المنطقة واستولوا على العربة!

عرف الإنجليز بعد وقت قصير أن مورهاوس قد خطف، فحاصروا المنطقة وفتشوا بيوتها بيتا بيتا، واستمر الحصار لمدة يومين، فى أثنائها اضطر خاطفوه أن يضعوه فى صندوق ويقفلوا عليه، ظنا منهم أن الحصار لن يستمر طويلا وأنه يمكن أن يعيش طويلا فى الصندوق، لكن الحصار طال للدرجة التى أدت إلى اختناق مورهاس داخل صندوقه، والذى قام ونظم هذه العملية ضابط البوليس عز الدين الأمير.

* * *

منذ أن تم احتلال المدينة والعدو يبذل مجهودا كبيرا لإجبار الأهالى على العمل معه، عرضوا أجورا مرتفعة جدا للعمال وتأمينا لحياتهم، ووعدوا بأنهم فى حالة الجلاء سيأخذوهم معهم

إلى انجلترا، ثم عادوا للتهديد والقبض على الأهالي وإجبارهم على العمل تحت تهديد السلاح.

وأحيانا كانوا يقبضون على المارة في الشوارع ويجبرونهم على تنظيف المنازل المحتلة ثم يطلقون سراحهم وطالبوا المحافظ أن يعاونهم لكنه أبلغهم أنه لا يملك السلطة لإجبار أحد على العمل.

إلا أن الأهالي كانوا يقومون بالأعمال التي تهدد الصحة العامة مثل نقل الموتى ودفنهم وإصلاح المجاري وتنظيف الشوارع.

وأغلقت كافة الشركات المرتبط عملها بالميناء، وكذلك المحلات الكبرى، وكان العمل شبه متوقف تماما، ولم تكن تعمل غير المحلات التي تبيع المأكولات والمواد الاستهلاكية الضرورية، وأخذت الجبهة على عاتقها منذ أن تكونت مهمة تعبئة الناس ضد العمل مع العدو بالمنشورات واللقاءات الشعبية في المقاهي والشعارات التي كتبت على الجدران.

كونت الجبهة اللجنة العليا للعمال لتدعيم المقاطعة، والتي تشكلت بدعوة من أحمد كامل جليل (رئيس نقابة إسو)، ثم انضم إليها محمد سلطان (سكرتير نقابة شل)، ثم نقابة الشحن والتفريغ والنقابي علي إسماعيل.

وكان انضمام هذه النقابة كسبا كبيرا، إذ هي العمود الفقري للميناء، وعمال الشحن في الغالب (صعايدة)، وكل مجموعة تنتمي إلى بلد لها رابطة ولها معلمها ورئيسها، وهم جميعا فقراء ولا يملكون غير عملهم اليومي، ذهب كامل لمناقشة عمال الشحن للانضمام قالوا إحنا مقاطعين لكن مش لاقيين ناكل.. ماذا نفعل؟

قال أحد عمال الشحن اسمه كامل صليب، وهو رجل في الأربعين، من مدمني قراءة الصحف والاهتمام الشديد بالسياسة، قال صليب: «دا واجب وطني علينا.. دا إحنا كنا مقاطعين أيام الهولنديين وأيام الفرنساويين لما كانوا بيحاربوا بتوع الهند الصينية رفضنا العمل على سفنهم، وأيامها الحكومة ألقت القبض على ناس كتير مننا».

ونظر صليب إلى كامل، وعروق وجهه تبرز أكثر فأكثر وصوته يعلو: «دا إحنا ناس وطنيين يا أستاذ وبنكره الاستعمار، إحنا صحيح فقرا ورزقنا يوم بيوم وحالتنا دلوقتي زفت، لكن مش ممكن حنتعاون مع الإنجليز».

وتدخل في الحديث رجل كبير في السن يلبس جلبابا نظيفا ويغطي رأسه بعمامة كبيرة مزهرة، ويبدو أنه أحد المعلمين وقال بفخر شديد: «دول عرضوا علينا أكثر من عشر أضعاف أجرنا وإحنا مش لاقيين ناكل ورفضنا.. ده حتى مهمات البوليس الدولي رفضنا نقلها من سفنهم إلا بعد تدخل المحافظ ورفضنا أن نأخذ أجرا لما عرفنا إنهم جايين علشان يقفوا معانا». ثم عاد صليب للكلام: «اطمئن يا أستاذ، إحنا عددنا حوالي ١٧٠٠ عامل، كلنا معاكم، اللي إنتم عاوزينه نعمله..».

أصدر العدو منشورا خبيثا مزورا بخط اليد، فوجئنا به في الصباح ملصق على الجدران بإمضاء شيء وهمي اسمه «اللجنة التنفيذية للعمال» يخاطب المنشور العمال: «كفاية اللي مات مننا، مش ممكن البلد تفضل حالتها كده واقفة، وإحنا حناكل منين، ويطالب المنشور العمال بالعودة إلى العمل والحياة

الطبيعية».

ردت الجبهة الوطنية على هذا المنشور، وتوالت النقابات للانضمام إلينا.

* * *

كان الشبان الصغار (١٢ و١٥ سنة) ينتهزون فرصة وقوف أى عربة من عربات العدو، ومن الخلف يلصقون عليها صورة عبدالناصر، وأصبح مألوفا مرور عربات الإنجليز والدوريات ومن الخلف وعلى جوانبها صور عبدالناصر.

كنا أربعة: أنا وشوقى المرجاوى وطالبان صغيران فى السن (١٥ سنة) نلصق المنشورات على الجدران، وكان إثنان منا يراقبان الدوريات والآخران يعملان، ونفدت كمية الدقيق المعجون التى نستخدمها فى لصق المنشورات، فاقترح علينا طالب من المجموعة التى تعمل أن نطرق باب منزل معين فى المنطقة ونطلب منهم بعض الدقيق، وطرقنا الباب الذى فتحته فتاة جميلة (١٥ سنة) طلبنا منها كمية من الدقيق، نظرت لنا بدهشة، تقدم الطالب الصغير وشرح لها الأمر ودوره فى المقاومة الشعبية وأعطاها أحد المنشورات، ابتسمت الفتاة وقرأت المنشور وهرولت للداخل وغابت لحظات وعادت ومعها «طبق» ممتلئ بالدقيق المعجون الجاهز.

وواصلنا العمل ولصق المنشورات على الجدران والطالب الصغير يطالبنا بأن نضع (عجينا) أكثر خلف كل منشور حتى يلصق جيدا، ولينفد الدقيق بسرعة ويعود إلى فتاته مرة أخرى.

سمعنا صرخة محذرة: احذر دورية.. نظرنا إلى الخلف، كانت

إحدى الدوريات تتجه ناحيتنا، وفى لحظة تفرقنا واختفينا، بالنسبة لى دخلت أول بيت فى المنعطف وصعدت جريا على الدرج، وانفتح الباب، وقالت السيدة صاحبة المنزل: ادخل يابنى. دخلت وأغلقت الباب، ووقفت هى تراقب الشارع من خلف النافذة، وقالت مازالوا يبحثون عنكم، ثم قالت كنت أقف فى الشرفة عندما رأيتهم وصرخت فيكم محذرة، ثم قامت وغابت لحظات وجاءت بكوب من الشاى الساخن شكرتها واستأذنت فى النزول، قالت انتظر حتى ألقى نظرة على الشارع.. ثم قالت لقد اختفوا.. ونزلت.

اجتمعنا فى المقهى نحن الأربعة وقال صديقنا الصغير: أين «الطبق» الذى كان فيه الدقيق لكى أذهب وأعيده لأصحابه!

* * *

كتب سعد رحمى منشورا بالإنجليزية موجها لجنود الاحتلال، تحدث فيه عن أطفالهم وزوجاتهم وأمهاتهم الذين تركوهم وراءهم فى انجلترا وفرنسا وجاءوا إلى هنا للاعتداء على شعبنا، وتحدث عن الأطفال والأمهات الذين شردوا وماتوا فى وطننا. وقال: إن هذا كله يتم لحساب تجار الحروب إيدن وموليه ومن ورائهم الشركات الاحتكارية التى تنهب من وراء مغامرتكم وتضحياتكم ثرواتنا وتعيش فى أمان فى انجلترا وفرنسا ويضحون بكم، وتتعرضون لمخاطر الحرب والموت، وفضح المنشور الأهداف السياسية الاستعمارية للعدوان، وقال لجنود الاحتلال إنكم مجرد أدوات وضحايا مثلنا تماما.

هذا المنشور أصدرته الجبهة، واستطعنا أن نقيم بعض

العلاقات مع الجنود «الموريشان» الأفارقة عن طريق كامل جليل النقابى، ووزع أيضا عن طريق منظمة «أيوكا» اليونانية ووزعه بعض الجنود الإنجليز الفرنسيين اليساريين وكان هؤلاء الجنود يتعاونون معنا، أخذوا المنشور ووزعوه داخل معسكراتهم، وكان له تأثير كبير على الجنود، ويومها هوجمت جميع المطابع ودمرت حروفها، وطبع هذا المنشور فى مطبعة مخلوف، وأذيع فى إذاعات كثيرة فى العالم وأثار ضجة كبيرة.

* * *

أصدر الإنجليز كاريكاتيرا ووزعوه بالطائرات، عبارة عن نسر ضخم يحمل فى إحدى قدميه كلمة «بور» وفى القدم الأخرى كلمة «سعيد»، وتحت القدمين مشهد للميناء وهى مهجورة، وكتبت تحت الصورة بورسعيد كانت «سعيدة» وأحالها ناصر إلى «بور». قام عبدالمنعم القصاص بالرد بالكاريكاتير، رسم نسرا فى إحدى قدميه «جى موليه» وفى القدم الأخرى «إيدن»، وتحت النسر صورة للقناة وكتب تحت صورة النسر «سندفنهم فى القناة» وطبع أيضا فى مطبعة مخلوف.

وخاض الكاريكاتير معركة، استخدم فترة فى الدعاية، وكان كاريكاتيرا يحتوى على نكتا بالإنجليزية والفرنسية وسخرية موجهة ضد العدوان.

وفى يوم جاء عبدالمنعم القصاص وهو مرتبك جدا وقال: إن أحد الصحفيين الذين دخلوا بورسعيد اليوم قال له إن زوجته «الصحفية أمينة شفيق» وصلت بورسعيد متخفية، وقلبنا الدنيا بحثا عنها دون جدوى، وخلال سيرنا فى الشارع أنا وعبدالمنعم

فوجئنا بفتاة وقد حلقت شعرها، ووجهها مثل الأولاد، وترتدى جلبابا رجاليا وحذاء رجاليا، واندفع عبدالمنعم نحوها قائلا: أمينة!

دخلت أمينة المدينة متنكرة فى زى صياد وقامت بعمل أحاديث وحوارات مع أمهات الشهداء، مع أم حسن حمود شهيد المظاهرة، ومع أم عادل مندور وهو شاب من الحرس الوطنى قتل أثناء دفاعه عن المنطقة التى كان مسئولا عنها فى حى الافرنج، وأطلقت عليه رصاصة من أحد المنازل التى يقطنها بعض المالطيين، ونشرت هذه الأحاديث فى مجلة «الانتصار».

وقامت أمينة بإذاعة بيان الجبهة وبيان المحافظ من داخل عربة بميكروفون أثناء انسحاب الإنجليز، وطالبت فيه الأهالى بالمحافظة على النظام.

* * *

كان الأهالى يكتبون «بالبوية» بالإنجليزية على ظهور الكلاب اسم إيدن وموليه ويتركونها فى الشوارع ليراها الأعداء.

أحضر الأهالى دميتين كبيرتين، واحدة مكتوب عليها إيدن، والأخرى موليه، وشنقوهما وعلقوهما فى عرض الشارع بالحبال، ووضعوا تحتهما مباشرة صندوقا من الخشب مقلوبا وكتب عليه بالإنجليزية «احذر الاقتراب»، متفجرات.

جاءت دورية إنجليزية وخافت من الاقتراب وأبلغت قيادتها باللاسلكى والأهالى يراقبون ما يحدث من بعيد من تحت البواكى ومن النوافذ.

جاءت عربة محملة بقوة مسلحة ومعها عربة صغيرة نزل منها

خبراء أحاطوا بالدمى (الألبى الشهير فى بورسعيد) بسياج من الجنود، وتقدم اثنان يبدو أنهما من خبراء المفرقعات وظلا يتحركان حول الصندوق ويختبرونه ببعض الأسلاك والأجهزة ويتبادلان الكلام باهتمام شديد، والأهالى يبتسمون ويكتمون ضحكاتهم، وبعد عدد كبير من الاختبارات، وفترة طويلة من الوقت، رفعوا الصندوق الخشبى من على الأرض، ووجدوا مكتوبا تحته على أسفلت الطريق بالبوية البيضاء:

Down with Eden Down with Molley
Canal is your grave Death for Enemies

وامتلأ أسفلت شوارع بورسعيد بهذه الشعارات المكتوبة بالبوية البيضاء.

حظر التّجول

استطاعت الجبهة أن تسيطر تماما على المدينة وعلى جماهيرها، نفسيا وفعليا، وكانت الجماهير تنتظر دائما تعليمات القادة من الجبهة، وفكرنا فى مقاومة حظر التجول المفروض على المدينة فى الخامسة مساء كل يوم حتى السادسة صباحا.

وناقشنا الموضوع، وقمنا بإعداد خطة، وحددنا اليوم، وعبئت الجماهير فى هذا الاتجاه، وكانت الخطة تعتمد فى الأساس على قوة ضاربة كبيرة توزع فى الأقسام المهمة من المدينة لحماية الأهالى من أى اعتداء عليهم من قوات الاحتلال.

وكان الناس يعانون فعلا من حظر التجول، فالبعض الذين لا يتمكنون من العودة قبل حظر التجول يمضون الليل فى أى مكان آخر غير بيوتهم، والمحلات تغلق قبل الحظر بفترة طويلة قد تصل إلى ساعتين، والناس يلهثون ليصلوا إلى بيوتهم وهكذا.

وفى اليوم المحدد أعد الباعة «كلوبات» مصابيح لإضاءة محلاتهم، واستعدت المدينة كلها للسير فى الشوارع ومواصلة الحياة الطبيعية التى حرموا منها طويلا.

وفوجئت قوات العدوان فى الساعة الخامسة بأن الناس يمارسون حياتهم الطبيعية وكأن الساعة لم تتحرك وقدم «ستكويل» إنذارا للمحافظ إذا لم يدخل الناس بيوتهم وتقفل المحلات فإنهم سيطلقون عليهم الرصاص.

وجاء المحافظ يرجونا ويقول ستحدث مجزرة، ولكن هذا كله لم نهتم به وللأسف تراجعنا بسبب أحد زملائنا المسئول عن القوات الضاربة والذى ادعى فى اجتماع الأمس وأمامنا خريطة لبورسعيد، ادعى أن لديه عددا مبالغا فيه جدا من القوات

الضارية القادرة على مواجهة أي عدوان والدفاع عن الأهالي، ووزعنا هذه القوات الوهمية على الورق واتصلنا بالأماكن التى ستقف فيها القوات الوهمية وعبأنا الجماهير فى اتجاه التعاون مع هذه القوات.

وفوجئنا قبل حظر التجول بلحظات بضابط من أصدقائنا من رجال المخابرات المتعاونين معنا اسمه «عرفة» يبلغنا بأن القوات الضارية التى وزعناها ونعتمد عليها مبالغ فيها جدا والحقيقة غير ذلك بالمرة ويحملنا مسئولية استمرار المعركة، تحت ضغط هذا التصرف اضطررنا لإلغاء هذه المعركة فورا، وانتشرنا فى الشوارع نطلب من الناس أن يدخلوا البيوت ويغلقوا المحلات.

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة، وبرغم هذا الفشل فقد كانت هذه أول ليلة يبدأ فيها حظر التجول فى الثامنة مساء.

* * *

وزع العدو منشورا تحت أبواب البيوت وفى جميع الأماكن ببورسعيد، المنشور بإمضاء «الضباط الأحرار». المنشور يتكلم عن ديكتاتورية عبدالناصر، والحكم الفاشى لعبدالناصر، والانسحاب المزرى للجيش أمام قوات إسرائيل، وأن هذا تم لأن عبدالناصر خائف من الشعب الذى سيثور ضده، ولذلك سحب جيشه إلى القاهرة لكى يحميه، ثم حديث عن الديمقراطية وحرية الشعب ودعوة الناس لمقاومة هذا الحكم.

وفوجئنا فى الشارع بشائعات تقول إن الجبهة هى التى أصدرت هذا المنشور، وشائعات أخرى تقول إن الشيوعيين هم أصحاب المنشور.

أصدرنا منشورا للرد على هذا الكلام وفضحه بتوقيع «الحزب الشيوعى الموحد»، ومنشور آخر بتوقيع «الجبهة» يكشف خطة الاستعمار فى تفتيت وحدة الشعب وصرف الأذهان عن العدو الرئيسى وهو العدوان واستطعنا أن نهزم هذه المحاولة الخطرة.

واستخدموا سلاح الشائعات الذى لم يتوقفوا لحظة عن تصويبه للنيل من وحدة الناس وبلبلتهم وبث الفرقة والتأثير فى ثقة الناس بأنفسهم.

وكانت أخطر الشائعات هذه المرة تقول إن الأقباط يتعاونون مع الإنجليز، وكان لهذا انعكاس شديد الخطورة فى الشارع، وبدأت معارك صغيرة بين الأقباط والمسلمين، وشعرنا بأن الموقف ممكن أن يتصاعد، ورغم قدم هذا السلاح واستخدامه المتكرر دائما فى الظروف العصيبة، إلا أنه دائما يفيد ولو جزئيا العدو الذى يريد أن تتحول المسألة إلى معركة داخلية فى صفوف الناس ويشتت انتباههم عن العدو الرئيسى.

أعطت الجبهة توجيهات فى الحال لفض المعارك الصغيرة، واستغلالها لتوعية الناس وتقوية ودعم الروابط بين المسلمين والأقباط، وأقمنا فى الحال مؤتمرات فى الشوارع والمقاهى لإفساد هذه الفتنة، واجتمع الكادر المسئول عن الجبهة واتخذ قرارا بعمل مظاهرة ضخمة يتصدرها رجال الدين الأقباط والمسلمين كرد عملى على هذه الشائعات، ولتحية ذكرى الشهداء فى الوقت نفسه. عقد الاجتماع فى المساء وكان رأيى الخاص ضد القيام بالمظاهرة، وذلك لأننى كنت أخشى أن تحدث معركة كبيرة بيننا وبين الإنجليز ويسقط المزيد من القتلى، ولكن الأغلبية كانت ترى

ضرورة القيام بمظاهرة تلم شمل الجميع، وكلفونى بمسئولية التحضير للمظاهرة وتنظيمها وتوجيهها وقيادتها.

* * *

فى صباح الجمعة وزعنا منشورا يدعو الناس للتظاهر، وأننا سنبدأ المظاهرة من جامع الرحمة والجامع التوفيقي، وهما أكبر مسجدين فى بورسعيد يتجمع فيهما الناس.

وأعددنا منشورا ثانيا ليوزع فى المظاهرة وليؤكد للناس أن العدو عندما يضرب ويطلق النيران لا يفرق بين مسلم ومسيحى وبين مئذنة جامع أو برج كنيسة، وإنما يضرب الشعب المصرى، يضرب الثورة، يضرب الإصلاح الزراعى وتأميم القناة ومكاسب العمال والشعب، وعلينا نحن المسلمون والأقباط أن نقف ضد العدو صفا واحدا وندعم وحدتنا الوطنية والشعبية للتصدى لعدونا الاستعمار.

شعر الإنجليز ربما من المنشور الذى وزعناه فى الصباح بالتحضير للمظاهرة واتصلوا بالمحافظ وطالبوه بمنع المظاهرة وهددوه.

اتصلنا بالكنائس والقسس وطالبناهم بالحضور والسير وتصدر المظاهرة مع المشايخ وخطباء المساجد الذين اتصلنا بهم وطالبناهم بأن تكون خطبة الجمعة فى اتجاه التعبئة للمظاهرة.

اتصل بنا أحد كبار الموظفين وطلب منع المظاهرة، وقابلنى وأنا واقف أمام الجامع، وقال لي: المظاهرة ممنوعة، قلت له أنا لا أتلقى الأوامر من سعادتك، وإنما أنا أنفذ أوامر الجبهة، ولهذا لابد أن تقوم المظاهرة.

أحضرنا الأعلام والشعارات فى جامع الرحمة (عاش جمال بطل المقاومة، عاشت وحدة الشعب والجيش والحكومة - القرآن والإنجيل ضد الاستعمار - عدونا إسرائيل وفرنسا وانجلترا - عاشت وحدة الصف الوطنى - عاشت ذكرى شهداء المعركة).

اخترت الشاب الذى سيحمل العلم، كنت متأكدا أنه سيحافظ عليه، الشاب اسمه على وإخترت الذين سيحملون الشعارات.

حاصرت الدبابات والمصفحات والقوات الإنجليزية مساجد الرحمة والتوفيقى والعباسى وأصبح الجو متوترا، أمر الموظف الكبير خطباء المساجد بأن يخطبوا فى الناس ضد المظاهرة.

وفعلا كانت الخطب فى اتجاه.. (كفاية اللى مات مننا، العدو حينسحب حينسحب، وأن هناك بعض الشبان المتهورين المندفعين سيقومون بمظاهرة النهارده بعد الصلاة، والإنجليز أنتم شايفينهم محاصرين الجامع فاحذروا الاشتراك فى المظاهرة، ولا تلقوا بأيديكم فى التهلكة).

وأرسلت المحافظة قوات البوليس منحمولة على عربات لورى ووقفوا حول المساجد مع القوات البريطانية!!

وانتهت الصلاة وبدأ الناس يرتدون أحذيتهم ويخرجون من الجامع، ووقفت أنا وسط مجموعة من الشباب وهتفت «عاش جمال رمز المقاومة.. يسقط الاستعمار.. عاشت ذكرى الشهداء».. فى البداية لم يردد الهتاف غير زملائى الذين حولى فقط، وكسبنا عدداً ضئيلا جدا من الأصوات تردد معنا الشعارات.

خرجنا للشارع بضعة أمتار وخرج الزملاء بالأعلام واللافتات

ووقفوا فى منتصف الطريق، وقفنا نهتف، والناس تخرج من الجامع وأمامهم القوات البريطانية بالدبابات والمصفحات مستعدة ومحيطة بالمسجد ومعهم عربات البوليس المصرى ممتلئة بالعساكر.

وانقسم الناس، بعضهم وقف وهتف معنا والبعض ساروا فى طريقهم، وقسم كبير ظل مترددا وابتعد ببطء عنا وتوقفوا ينتظرون ماذا سيحدث. والبعض وقف يتفرج من بعيد وكنت أقف فى المقدمة أهتف وأخطب فى الناس، ذلك أننى كنت أخشى أن تفشل المظاهرة، فأتهم بالتقصير ولأن زملائى يعرفون أننى كنت ضد القيام بها.

وفجأة اندفعت عربة بأقصى سرعة فى اتجاهى وأنا واقف وسط تجمع صغير من الناس، توحى سرعتها بأنها ستكتسح كل شىء أمامها، جرى الناس وأفسحوا لها الطريق، وقفت أنا فى المنتصف ولم أتزحزح وأنا أقول «محدش يتفرق، ما تخافوش» والعربة المندفعة فى اتجاهى وقفت فجأة على بعد شبر واحد منى، وقفت العربة مرة واحدة وصدر منها صوت مزعج جدا لدرجة أن الهواء المصاحب لسرعتها كاد أن يقتلعنى من على الأرض.

نزل من العربة أحد كبار الموظفين وهجم علي، وحدث اشتباك بالأيدى بينى وبينه وتبادلنا الشتائم المقذعة.

وعندما رأى الناس هذا الاشتباك اندفعوا نحونا: الذى كان يقف بعيدا والمترددين والذى كان ينظر خلفه.. الجميع جروا وتوجهوا نحو الاشتباك وتجمع الناس.

وقررت أن أستفيد من هذا التجمع الذى حدث وأن تسير به

مظاهرتنا، قلت للذين يحملون الأعلام والصور والشعارات سيروا، وسرنا إلى الأمام. وتقدمت سيدة كبيرة في السن وحملت العلم وتقدمت به أمام الناس الذين ساروا وراءها وكل خطوة كنا نخطوها كنا نكسب المئات التى تنضم إلينا من مختلف الاتجاهات وتندفع للانضمام إلى المظاهرة، تجمع الآلاف معنا، وسرنا.

كانت المظاهرة صامتة، بعد أن بدأناها في الخطوات الأولى بترديد الهتافات لم نكن نسمع غير حفيف الشياب وصوت الأحذية وهى تحتك بالأرض وأنفاس الناس، وصوت طائرات الهليوكبتر وهى تطير وتهبط وتتشقلب وتقترب من رءوس المتظاهرين وتنخفض وتعلوا بقصد إرهاب الناس.

لكن هذا كله لم يؤثر، بل كانت الناس تزداد تصميما، خلف المظاهرة سارت عربات البوليس وبها ضباطهم وخلفهم عربات الإنجليز، والمظاهرة تزداد وتنمو وتضم الألوف من الشبان والشيوخ والأطفال والنساء، وجاء أحد القساوسة وتصدر صفوفنا الأولى وسار بجواره فى المقدمة أحد المشايخ، واكتسبت المظاهرة وقارا وحزما وتصميما.

وفوجئنا بسيدة سمراء رفيعة، تعمل راقصة في أحد الملاهى الليلية، ورأسها ووجهها تغطيهما بإزار أخضر كالعمامة أو اليشمك، وترتدى بالطو أخضر قصير وسارت مسرعة حتى وصلت إلى منتصف المظاهرة والناس تفسح لها الطريق حتى وقفت بجوار «الزميل على» حامل العلم، وأخذت منه العلم ورفعته إلى أعلى وسارت به في وسط المظاهرة.

ألهب هذا الموقف الناس جميعا، وضاعف من قواهم، واهتز قلبي من الفرح والنشوة والإحساس بالنصر، أفواج من النساء تنضم للمظاهرة ونحن نسير ببطء، وربما تكون هذه أقوى وأطول مظاهرة مرت ببورسعيد، وسرنا والصمت يلف عشرات الألوف ولا تسمع غير صوت السير، وصوت الأقدام التي تحتك بالأرض.

وصلنا المقابر، وحول نصب الشهداء، رفعني زملائي على أكتافهم لأخطب، وقلت في كلام مختصر محدد عن خطورة وأهمية وحدتنا الشعبية والوطنية بين المسلمين والأقباط، ثم تحية لشهدائنا الذين سقطوا في المعركة، وقلت قسما على قبور شهدائنا لن نلقى السلاح حتى يخرج آخر جندي مغتصب من بلادنا وطالبت الناس، أن يقفوا دقيقتين من الصمت حدادا وتحية لذكرى الشهداء، ونزلت من على أكتاف زملائي.

تضاعف الصمت حتى شمل الكون كله، حتى صوت الأنفاس كأنها توقفت عن أن تتزدد في صدور الناس، صمت وكأن الدنيا كلها تقف صمتا، لا تسمع حتى طنة الذبابة، لف الصمت العميق الناس في جو من الرهبة الهائلة، رهبة الوقوف والخشوع أمام الموت الذي تجدد وتجددت ذكراه في القلوب حتى انتهت الدقيقتان.

جرت الدموع في العيون ترطبها، فكل إنسان يقف هنا كان يقف أمام قبر إنسان عزيز فقده خلال الأسابيع القليلة الماضية، أم أو ابنه أو أبوه أو صديقه أو خطيبته أو امرأته أو جاره أو إنسان كان يلقاه كل صباح. كان الناس جميعا قد قدموا ضحايا يرقدون تحت هذا التراب. وكان الحزن مثيرا للإصرار على المقاومة أو

اللحاق بالشهداء الأعزاء.

انتهت دقائق الغرق فى الصمت، وطفا الناس على سطح التراب من جديد وقدمت لهم أحمد رفاعى ليقول كلمة: وكان أحمد خطيبا مؤثرا وقويا وحارا، عزف على أوتارهم الحزينة وأبرز من داخلها نغم المقاومة وانفتح الناس لكلامه، قلوبهم وعروقهم وشرايين دمائهم، وتلقت خلايا أجسادهم كلمات أحمد وانغرست فى نخاع عظامهم، وكانت كل كلمة يلقيها تبرز فى الحال على ملامحهم وجلودهم، عن الحرب والعدوان والأعداء والعزم على الانتصار أو الاستشهاد.

وانتهت كلمة أحمد وانتهت المظاهرة، وطلبنا من الناس أن تتفرق فى هدوء حتى لا يتحرش بنا الإنجليز.

وكان لابد أن نوزع منشورا على الناس قبل أن تتفرق، ولم يصل المنشور بعد، أخذت دراجة وبسرعة ذهبت إلى مطبعة مخلوف، وتسلمت كمية من المنشورات وأخذتها أمامى على الدراجة وقابلت الناس وهى عائدة من المقابر، وأمام مقهى السعدية فى الميدان أمام حديقة سعد بدأت توزيع المنشورات على الناس فى الشارع.

كنت قد وصلت أمام مقهى السعدية وكان يجلس خلفى تحت البواكى أحد زعماء الجبهة الزميل أحمد رفاعى وعدد من ضباط المقاومة، وكانت الناس قد تجمعوا حولى وأنا أوزع عليهم المنشورات، وظهرت فجأة عربة من عربات الدورية ووقفت ملاصقة لى، وهبط منها بسرعة ضابط إنجليزى برتبة كبيرة ومعه عدد من الجنود المسلحين واتجهوا نحوى، ضربت أقرب جندى

بالنسبة لى فى وجهه بالمنشورات وجريت، واصطدمت بجدار المقهى، وشعرت بأيدى قوية تقبض على ذراعى (وتكتفنى) بسرعة لتشل حركتى، وأفلت إحدى يدى ولطمت بها أقرب جندى على وجهه بيدى، وبسرعة وفى أقل من ثانية قررت أن أقاوم بعنف والتف حولى بقية الجنود وضابطهم وأنا أهتف لأجمع الناس ليساعدونى، ونظرت إلى ورائى ووجدت أحمد رفاعى زميلى يقف خلفى مباشرة، وتصورت أننى ممكن أن أحول الموقف إلى معركة، ورفعت يدى مرة أخرى إلى أعلى وسمعت صوت أحمد رفاعى ويدى تهبط لتصطدم بوجه الجندى الآخر، كان صوت أحمد رفاعى يقول لى «ما تقاومش سلم نفسك».

هبط حماسى فى الحال كأن سلكا صعقنى، ورفعنى جنديين إلى أعلى وألقونى فى العربة، وركبوا، أحاطونى بالجنود، وكانت ملامحهم تنطق بالعداء والشر خصوصا الجندى الذى ضربته فى وجهه. سارت العربة حتى مقهى الرسوة، وهو آخر مبنى وبعدها أرض فضاء والبلاج وأمرونى بالنزول، وسلمونى لدورية كانت واقفة، قالوا: وشك للحيط، وأدرت وجهى للحائط، وشعرت بالسونكى فى ظهرى، ورفعت يدى إلى أعلى وانتظرت أن ينطلق الرصاص.

التحقيق

السـونكى فى ظهـرى، تـوقف الزمن تماما ، شـعرت بأننى وقـفت دهرا ، الرصاصة ستنطلق فورا وتقضى على حياتى، مر فى خلايا مخى شريط حياتى فى ثانية وحدة مركزة طولها عشرات السنين، ثانيـة مركزة ودموية، أمى تصرخ وإخوتى ينخرطون فى البكاء، ستحرم أسرتى من راتبى الشهرى، حرمانى من الحياة من أمل فى زوجة وبيت، والاستـمتـاع بالحياة، انتـهـاء الدنيا ، مرت لحظات لم تنطلق الرصـاصـة، لم يخـتـرق لحـمـى أى لهب أو نار، ظهـرى لم يتحطم، انتابنى حزن كاد يقوضنى، أحسـست براحة من اليـأس، ارتيـاح، سـأموت مـوتا مدويا ، الناس سيتـحدثون عنى، اخـترق أذنى صـوت سيـارة، وقـفت، أقـدام جنود ، لقـد جـاءت السـاعـة، أشهد أن لا إله إلا اله.

تلقـيت خـبطة بالسـونكى فى ظهـرى، وجـذبتنى يد من الخلف، وتحولت إليه وذراعاى مرفوعين ومتخشبين، جذبونى ناحية العربة وقالوا: اركب.

انطلقت بى العـربة، وبعـد دقـائق وصلنا لمبنى الصحـة بميـدان المحافـظة، الجندى الذى ضربتـه جذبنى وأنزلنى وهو يلوى ذراعى ويدفعنى إلى الأمـام، دخلت أحد الأبواب.علي الجـانـبين أسـلاك شائكة وخيمة متصوبة وأمامها جنود مسلحون .

لابد أنهم قـالوا لهـم «مـوتوه من الضـرب»، أحسـست فى لحظة أن هناك احتمالا ألا أموت، تركونى وخرجوا دون أن يهجموا على ويدمـرونى من الضـرب، مـعى جندى واحد يحـرسنى، عـمـره قـد يتجاوز العشرين عاما بقليل، شاب صغير، ابتسم لى وقال: Ont worry، ولا يهـمك. ضحـكت. اكتـسحنى شعور بالاطمئنان هزم

فى ثانية الخوف والقلق وكأننى لم أقلق فى حياتى ولم أذق طعم الخوف طول عمرى، ارتدت إلى الحياة بعد أن مت فعلا قال الجندى: «روح أقعد هناك بجوار الخندق».

جلست، فكرت فى احتمال التحقيق معى وتعذيبى. تذكرت جيوبى، كانت ممتلئة بالمنشورات والتقارير، قلت لنفسى أتخلص من كل ما أحمل من أوراق، بدأت أمزق المنشورات والتقارير إلى قطع صغيرة وآكلها، تبينت أننى سأحتاج إلى وقت طويل جدا، أمضيت وقتا طويلا فى أكل منشور واحد، فكرة معقولة أن أفحت الأرض التى تحتى وأنا جالس وأدفن فيها المنشورات بعد تمزيقها، أما التقارير والأسماء فلابد من مضغها وأكلها.

سمعت صوتا يقهقه ويضحك بصوت عال وهو ينظر لى ويقول بالإنجليزية: ستظل تأكل الورق حتى تبقى مثل الخنزير.

ازددت اطمئنانا، حفرت فى الرمال، ودفنت الأوراق الأقل أهمية بعد تمزيقها وأكلت التقارير وأسماء زملائى، وتخلصت من كل الأوراق، كنت أنظر إلى حارسى وهو يعطينى ظهره وكأنه يقول لى: اطمئن وافعل ما تشاء.

انتهت المهمة الأولى، التخلص من الأوراق، وبدأت أفكر وأناقش بينى وبين نفسى كل الاحتمالات.

بعد فترة من الوقت، أدخلونى حجرة، أمامى ضابط يوزباشى (نقيب) إنجليزى ومعه أحد الجنود.

بدأ الضابط يسأل: اسمك، وتدخل الجندى الإنجليزى ليترجم إلى العربية، قلت له أستطيع الإجابة بالإنجليزية دون حاجة للمترجم.

قال الضابط المحقق: ما الذى حدث لازم تقول الحق. هذا أفضل لك.

قلت له: «إنت عاوز الحقيقة، كنت ماشى فى الشارع، قابلنى رجل ضخم أسمر له شارب كبير، وكان يركب دراجة أعطانى المنشورات، وقال لى وزعها ومشي، أخذتها وفكرت ماذا أفعل بها، وفجأة وصلت العربة الإنجليزية التى قبضت على.

قال: هل تعرف الذى أعطاك المنشورات؟

قلت: لا.

هز رأسه وسكت لحظة وقال: ياللا تعالى.

ركبنا عربة، وبعد دقائق وصلنا إلى مبنى على البلاج تستخدمه المخابرات الإنجليزية، دخلنا حجرة بها مكتب ضخم يجلس خلفه يوزباشى (نقيب) إنجليزى آخر صغير فى السن، طويل القامة، له شارب صغير وشعره أصفر، وبمجرد دخولى الحجرة صاح وهو يشير بيده: هناك، وأشار لى على الحائط وقال: «وشك للحيط»، وارفع ذراعك إلى أعلى».

وتبادل الضابطان حديثا هامسا بصوت خافت، وقلت لنفسى مشجعا: حتى الآن «كويس»، وربنا يستر فى الباقى.

خرج الضابط الذى أحضرنى إلى هنا، ونادانى ضابط المخابرات الإنجليزى وقال لى: اتفضل اجلس. جلست، أمامه علبة سجائر «بلايرز» فيها ٥٠ سيجارة قال لى: هل تدخن قلت: نعم، وابتسمت، أخذت سيجارة وأشعلها لى.

قلت بينى وبين نفسى فلأحاول اكتشاف «الجو» قلت: وانت هل تدخن قال: لا. قلت مثرثرا هذا أفضل ومفيد للصحة. قال:

«تشرب شاى» قلت له: «نعم». ضرب الجرس، وطلب شاى، وجاء الشاى فى فنجان من الصينى والبخار يصعد منه، ورائحته جميلة، ارتشفت رشفة وشعرت بالدم يجرى فى عروقى والنشاط يدب في أعصابى وقلت بينى وبين نفسى: هات ما عندك.

وضع ورقا أمامه وسألنى: اسمك وماذا تعمل؟

فكرت فى معنى كلمة «كاتب» بالإنجليزية وتذكرت أن «كلارك» تعنى سكرتير، وتصورت أنها يمكن أن تؤدى المعنى، قلت: «كلارك» فى الحكومة.

قال: إذن أنت موظف كبير.

قلت منزعجا: لا أنا موظف صغير جدا وفقير.

سال: هل أنت متزوج؟ قلت: لا.

سألنى: هل تحب أو مرتبط بفتاة؟ قلت: لا.

ترك القلم من يده، وركن ظهره على المقعد وقال باشتياق عاطفى: أنا بحب. قلت بينى وبين نفسى (إيه ابن الهبلة ده)؛ وواصل كلامه وبصوت حالم قال: أنا خاطب. وصمت لحظة ثم قال وكأنه يحلم: وهى الآن فى انجلترا هناك، ولاأدرى هل سأعود إليها أم لا.

فكرت أن أسأله ومتى ستعود إليها لكى أعرف هل سينسحبوا أم لا، ولكنى ترددت وقلت مواسيا: «بكره ترجع وتتجوز ويبقى عندك أطفال».

ضحك وكأنه لا يصدق وسرح لحظة وقال: انت لازم تحب، ثم قال: انت تتحدث الإنجليزية جيدا، قلت لنفسى فلأكذب كذبة، وقلت له: السبب أننى كنت أتعلم فى المدرسة الإنجليزية، نظر لى

بدهشة، وقال من الذى كان يدرس لك وما اسمه، ارتبكت ولم أتذكر غير اسم «كيتلى» وكان هذا هو اسم قائد العدوان مع «ستكويل»، قلت له مدرس اسمه مستر كيتلى، قال لى: ده قائد الجيش، قلت له إنه تشابه فى الأسماء طبعا، هز رأسه وقال: ألم تكن هناك مدرسات، وبحثت فى ذهنى عن اسم واحدة وأخيرا قلت له نعم كانت على ما أذكر واحدة اسمها «مس سوزان».

قال بسعادة: تشرب شاى تانى.

قلت وأنا أسحب سيجارة من العلبة الصفيح المفتوحة أمامى: إذا سمحت!

وفجأة سألنى: هل دخلت الجيش؟

قلت: بالطبع لا، لأن نظرى ضعيف جدا، وأنا كما ترى ألبس نظارة ولا يمكن قبولى فى الجيش.

مد يده وقال: إذا سمحت النظارة، خلعت النظارة وأعطيتها له، نظر فى زجاجها وهز رأسه وأعادها لى.

بعد لحظة صمت قال: ما رأيك فى فاروق؟

سكت لحظة، محاولا الاستعباط، ولأعطى لنفسى فرصة لاختيار رد ملائم لا يورطنى، ويتناسب مع ظروفى كإنسان وطنى مهما كانت الظروف. قلت: فاروق مين؟

نظر لى بدهشة وقال: الملك فاروق.

قلت: آه.. إنه رجل سىء ولا أحد يحبه.

قال لى: ما رأيك مين أحسن محمد نجيب واللا جمال عبدالناصر؟

قلت بينى وبين نفسى لابد أن أقفل هذا الباب، باب الأسئلة

السياسية بأي شكل.

قلت له: أنا مسئول عن عائلة كبيرة، أعمل صباحا ومساء في عملي، وليست لدى أية فرصة للتفكير في الحياة السياسية، وأنا أحب السلام وأكره الحرب ولا أحب المعارك والعنف.

صمت لحظة ثم سألني سؤالا محددا واضحا: هل أنت مشترك في المقاومة؟

قلت: لا.

قال: إذن ماهو تفسيرك للمنشورات التي كانت معك وكيف وصلتك؟

تأكدت بيني وبين نفسي أن المخابرات الإنجليزية عن طريق جواسيسها وبعض المتعاونين معها تعرف بالتأكيد بعض المعلومات عن الجبهة والمقاومة، وهناك احتمال أن تكون لديها بعض المعلومات عني.

حكيت له القصة التي حكيتها للضابط الأول.

قال لي: ولكنك قاومت، وجريت وألقيت المنشورات في وجوه الجنود.

قلت: كنت أقاوم لكى أستطيع الهرب، فالمعروف أن الذى يجيء إلى هنا يقتل، تقتلوه.

فوجئ بإجابتي وقال مندهشا: من الذى يقول ذلك؟

قلت: الناس.

قال مؤكدا دهشته: الناس بتقول كده؟!

قلت: نعم.

قال: سترى إذا كنا نقتل الناس أم لا، ثم قال: هل معك

كرنيه؟
قدمت له «الكرنيه»، قال: هل فيه عنوانك؟ قلت: نعم، وأخذ الكرنيه وخرج من الحجرة.
وبدأت أتأمل الحجرة، الأرض «باركيه» عليها سجادة صغيرة أنيقة، وعلى الحائط براويز وصور نساء من الممثلات الأجنبيات، ورف من الخشب مسند على الأرض عليه دوسيهات، وزهرية بداخلها ورد، وعلى المكتب لوح من الزجاج السميك وفتاحة خطابات من العاج ومجموعة أوراق مبعثرة على المكتب، فكرت أن ألقى نظرة على الأوراق أو أعبث بها وترددت خوفا من أن أكون مراقبا.
وفتح الباب ودخل الضابط وهو يبتسم وقال لى: بعد فترة قصيرة سنتأكد من المعلومات التى قلتها، فإذا كانت صحيحة سنفرج عنك. قلت متصنعا السذاجة: وهل ستتركونى أذهب إلى منزلى؟ كيف وهناك حظر تجول.
قال: سنوصلك بعربة إلى منزلك.
أبديت له أننى مطمئن جدا لموقفى، وفردت رجلى على آخرها، وركنت ظهرى على المقعد وأخذت سيجارة من علبته وأشعلتها والضابط ينظر لى مدققا ولا أدرى ما الذى يدور فى رأسه.
وكنت متأكدا أنه يعرف عنى بعض المعلومات الصحيحة.
سألنى قائلا: لو رأيت الرجل الذى أعطاك المنشورات هل تعرفه؟
قلت: طبعا.
سكت برهة صغيرة ثم قال: الأفضل بالنسبة لك، وأنت مازلت

شابا صغيرا، الأفضل أن تحب وتتزوج وتعيش حياتك بعيدا عن أى أشياء أخرى.

وكانت طريقته فى نطق الكلمات توحى بأنه يعرف أشياء ولكنه لا يريد مواجهتى بها.

جاءت العربة وبها جندى للحراسة، مد الضابط يده وسلم على وقال مع السلامة، «خللى بالك من نفسك»، لو رأيت الرجل الذى أعطاك المنشورات تعالى وقل لنا، وابتسم، وكان فى لهجته شىء من التمثيل، سألته: هل أنا ذاهب إلى منزلى؟ قال: نعم.

سارت العربة ورفعت يدى لتحيته، ولأول مرة أرى شوارع بورسعيد بالليل، خلال حظر التجول، هدوء وصمت، سكون والليل لونه أسود داكن، اللون الأصفر، بقع صفراء مبعثرة على رقعة سوداء، الدنيا كلها مغلقة وساكنة وراكدة، والصمت هو الذى يتنفس فى الشوارع ويعيش.

فى الصباح قابلت زملائى، كنت أول إنسان يعتقل ويفرج عنه بعد ساعات من القبض عليه مباشرة، قامت مجموعة من الأهالى ومعهم أحمد رفاعى وقدموا شكوى وأبلغوا البوليس الدولى وطالبوا بالإفراج عنى فورا، وطالبوه بالتدخل، وذهب وفد آخر من الأهالى إلى المحافظ وطالبوه هو الآخر بالتدخل.

تم الإفراج عنى ربما لمحاولة التشكيك فى موقفى وبذر عدم الثقة بينى وبين زملائى ودفعهم إلى الشك فى، وأيضا للتركيز على مراقبة الناس الذين يتصلون بى بعد الإفراج عنى مباشرة، وعن طريق مراقبتى يمكنهم الوصول إلى معرفة أكبر قدر ممكن من كادر المقاومة والجبهة.

* * *

المقاومة تشتد

أغلق المعتدون كافة الطرق المؤدية إلى بورسعيد، ولذلك أصبحت المدينة تعانى من النقص الكبير فى المواد الغذائية وتتهددها المجاعة. وانقطعت تماما الخضراوت واللحوم والفاكهة وأصبحنا مهددين بنقص شديد في الأرز وهو غذاء رئيسي.

حاول عدد من التجار الاتفاق مع قادة العدوان للسماح لهم بالسفر إلى خارج بورسعيد لإحضار بضائع وتموين للمدينة ولكن المحاولة رفضت وإن كانوا سمحوا بعد ذلك بعد أن هددت المجاعة المدينة ولبعض التجار فقط، بعد أن أخذوا منهم ضمانات كبيرة.

وتدخل البوليس الدولى وسمح للسلطات المصرية بإرسال شحنات من البرتقال والخضروات إلى المدينة، وفعلا وصلت المراكب المحملة بالخضروات، وكانت المشكلة فى كيفية توزيعها، ووزعت على كبار التجار وكانت النتيجة أن اختفت البضائع فور استلامها وظهرت فى السوق السوداء، ارتفع سعر البرتقال إلى ثمانية أضعافه من ثلاثة قروش للكيلو إلى خمسة وعشرين قرشا وكذلك البامية والطماطم والجاز والسجائر.

شكلنا عددا من اللجان فى الأحياء مع التجار الصغار للأشراف على ما تبقى من هذه البضائع.

وصلت السيدة جنان الشواربى وبعض سيدات الهلال الأحمر ومعهم قدر كبير من النقود لتوزيعها كإعانات على المتعطلين وضحايا العدوان وفشل موظفو الإدارة المحلية فى القيام بهذا العمل، وتسلمت مكاتب الشؤون الاجتماعية فى بورسعيد هذه المهمة ووزعوا الإعانات وأصدر المحافظ أمرا عسكريا بالاستيلاء على بعض الأموال الموجودة فى البنوك وصرفت مرتبات الموظفين

وعمال الشركات.

وكان الفرنسيون يسلكون طرقا هجمية لأن أغلبهم من جنود الفرق الأجنبية الشهيرة، كانوا يسطون على البيوت والشقق المهجورة ويسرقون ما بها من ذهب ومجوهرات وساعات ونقود والاشياء التى لها قيمة بالإضافة إلى الاعتداء على النساء طبعا.

لم تحدث طوال فترة العدوان أن مارست المومسات المعروفات فى المدينة عملهن بل على العكس تماما كن يقمن بأعمال بطولية فى المقاومة.

انضم للجبهة خلال المقاومة النوبيون بعد أن شكلوا "اللجنة النوبية" التى ضمت المئات منهم، وانضم السودانيون إلى اللجنة السودانية وأصدروا منشوراتهم لتأييد كفاح الشعب وقاموا بأعمال كثيرة فى المقاومة، وكذلك انضم للجبهة اليونانيون باسم منظمة "أيوكا" وشاركوا فى المقاومة وأصدروا منشوراتهم باليونانية والعربية وأعلنوا تضامنهم وتأييدهم للشعب فى نضاله وقدموا النقود والتبرعات.

أما أهالى بورسعيدمن الفرنسيين والانجليز وبعض الإيطاليين فكانوا يطلقون النار من نوافذ بيوتهم على رجال المقاومة، والمالطيون قاموا بالتجسس لحساب العدو، وكان الضباط الفرنسيون والانجليز يسهرون ويشربون الخمور فى بيوتهم حيث تأتى لهم الراقصات المتمصرات والاجنبيات، وعندما رحلت قوات العدو أخذوا عددا كبيرا من المتعاونين معهم.

وصلت إلى بورسعيد أعداد من القاهريين والصحفيين

والمناضلين ومدعى الكفاح.

وأضاف علينا هؤلاء الوافدين أعباء جديدة فى توفير المسكن والطعام لهم واستخدمنا عددا من البيوت التى هاجر أصحابها لإيواء هؤلاء الوافدين.

وكنت أنا وصديقى سعد عبداللطيف نسكن معا بعد أن تركت منزل أسرتى فى بوّر فؤاد، وكنا نسهر نتحدث ونرتب خططنا ونناقش الأمور فى الساعات الطويلة من الليل بعد حظر التجول.

وفوجئنا يوما بساكن من سكان العمارة التى نسكن فيها، ويبدو أنه ضاق بساعات الليل الطويلة التى يقضيها مع أسرته، والعمارة كلها قد هجرها سكانها ما عداه هو والشقة التى نسكنها، وجاء وتعرف بنا وأدرك أننا نعمل فى المقاومة وكانت زوجته ترسل لنا من حين لآخر الشاى الساخن ودعانا مرة للعشاء فى منزله وفوجئنا بزجاجة من الويسكى ورفضنا احتساء الخمور، وكان الجميع يعانون شعورا دائماً بالخطر يدفعهم إلى عمل أى شىء قبل أن تودى بهم الأخطار.

ومن مدعى الكفاح جاءت مجموعة من أربعة أشخاص ومعهم سيدة جميلة من القاهرة مكافحة هى الأخرى، ووقف صلاح دهب معهم ذات يوم ورأيته وانضممت إليهم.

قالت السيدة أريد قنبلة يدوية، وأخذتها ووضعتها فى جيب البالطو وقالت سألقيها على الدبابة التى تقف هناك، وسارت بطريقة كلها جدية وكبرياء وكأنها ستفجر العالم كله، وكأنها تحمل فى جيبها قنبلة ذرية، ثم اختفت ولم نسمع صوت انفجار، وبعد لحظات عادت وقالت وهى تبتسم فى حكمة عميقة، وجدت

الجنود يحيطون بالدبابة فكان من المستحيل أن ألقيها أمامهم!
وأخذ القنبلة زميل لها من الواقفين، وقال سأذهب لأضرب الجنود الذين يقفون أمام الكنيسة التى هناك، وذهب وانتظرنا ثم عاد وقال لم أجد أحدا.. وأخذها الثالث.. وعاد، وهكذا حتى كدت انفجر من هذا العبث الطفولى السخيف، وانسحبنا أنا وصلاح.
وقد أضرت هي ومجموعتها بتصرفاتهم ضررا بالغا بسمعتنا خاصة أن السيدة كانت تسلك سلوكا أنثويا مثيرا للاشمئزاز.

* * *

اشتدت حركة المقاومة بشكل لم يسبق له مثيل، دعمت قواتنا حماس الناس وروحهم المعنوية، واشتد عود تنظيم الجبهة من خلال التجارب والخبرات السريعة، امتدت وتدعمت العلاقات بين قوى قيادة المقاومة وبين جماهير بورسعيد وهكذا لم يكن يمر يوم ولا ساعة واحدة دون أن تسمع أصوات الانفجارات والقنابل التى تلقى فى الشوارع وتقع الضحايا من الأهالى ومن قوات العدوان.
من المشاهد المألوفة أن تمر طول الوقت عربات الانجليز بسرعتها الجنونية لنقل الجرحى وعليها آثار طلقات الرصاص والقنابل اليدوية، يقابلها من الجانب الآخر عربات الكارو وعليها المصابون والناس يجرون بهم إلى المستشفى.
وكان من المستحيل أن تمر دورية انجليزية واحدة دون أن تطلق عليها النار والقنابل هذا غير المحاولات الناجحة فى الهجوم على معسكراتهم نفسها. كان الناس فى حالة جنون دائم وقتل وحرق

كل ما له علاقة بالعدو، وتصميم على الهجوم اليومى كل لحظة.

وتحت وطأة اشتداد المقاومة احتل الانجليز الشوارع بالدبابات، وأصبحوا فى الشوارع أكثر من المارة لمحاولة السيطرة على المدينة ولكن بلا جدوى.

وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا يقبضون على المارة ، ويفتشون كل إنسان يسير فى الشارع وأصبح مألوفا أن تجد الأهالى يجرى تفتيشهم وأيديهم مرفوعة إلى أعلى ووجوههم للحائط حتى الأطفال. ومع ذلك ازداد إلقاء القنابل على الدبابات والهجوم على الجنود والضباط وازدادت خسائرهم بشكل لا يحتمل.

وتحت وطأة المقاومة لم يجدوا مفرا من الانسحاب نهائيا من نصف المدينة من حى العرب فى ١٢ ديسمبر وأقاموا أسلاكا شائكة قسمت بورسعيد إلى نصفين، وعزلوا حى الافرنج وبورفؤاد تماما عن بقية المدينة وامتدت الأسلاك الشائكة من شمال المدينة حتى جنوبها، ومنع الدخول والخروج إلا بتصريح خاص من قوات الاحتلال، وأقيمت نقاط حراسة جديدة وأبواب يدخل ويخرج منها الناس، وذلك عن طريق ختم خاص على الأيدي، وأقيم هذا النظام المعقد لحماية قوات الاحتلال التى تمركزت فى حى الافرنج وبورفؤاد.

واجهتنا مشكلة نقل جزء من قوات الجبهة وامكانياتها وتعزيز قواتنا داخل المنطقة المحتلة الجديدة.

وتعرضت للقتل فى إحدى المرات التى حاولت فيها اختراق السلك الشائك للخروج من بور فؤاد والعودة إليها، وكان الرصاص يطلق فورا على أى إنسان يحاوى اختراق هذه الأسلاك.

استخدمنا السيدات فى الأتصال بين المنطقة المحتلة وحى العرب، وكانت أبرز المناضلات سيدة عجوز هى أم المناضل النقابى كامل جليل، وكانت عجوزاً ونحيفة جداً وثرثارة لدرجة لا تحتمل وكنا نهرب من الوقوف معها حتى ابنها كان يهرب من ثرثرتها فهى تتحدث بسرعة ستين كلمة في الدقيقة ولكنها طيبة وشجاعة وذكية.

كانت هى أول أتصال وأول جسر نقيمه بين المنطقة المحتلة والمنطقة المحررة (حى العرب)، حملناها بالتعليمات والمنشورات فى سلة لتوصيلها للمسؤولين هناك، وفى اليوم التالى استطاعت أن تهرب معها زميلين من قواتنا فى المقاومة ونجحت فى إعادتهم مرة ثانية.

وفي المنطقة المحتلة كان ثلاثة من الشبان يلصقون صور عبدالناصر ومنشورات الجبهة على الجدران وبالقرب منهم السيدة العجوز ومعها سلتها المحملة بالمنشورات والخبز والخضروات، وفجأة"كبست" عليهم دورية انجليزية، وقبضت على الشبان الثلاثة وأوقفتهم ملاصقين للحائط وأيديهم مرفوعة وبدأوا تفتيشهم - ابتعدت قليلا أم كامل بسلتها التى أخرجت منها زجاجة مياه غازية، وألقت الزجاجة بالقوة على الأرض فأحدثت صوتاً مثل الانفجار التفت الجنود إلى ناحية الصوت يبحثون عما حدث وأيديهم على أسلحتهم وبنادقهم، ووجدوا سيدة عجوز منحنية على الأرض تجمع شظايا الزجاجة المحطمة وهى ترطن وتشتم، وعندما التفتت الدورية إلى الناحية الأخرى لم تجد الشبان الذين أوقفتهم ، هيأت لهم أم كامل بذكائها فرصة

الأفلات.

انضم إلينا أحد الشبان وكان من أنشط العناصر وأكثرهم حماسا ويتصدى لأصعب المهام ومع ذلك كنت أشعر بأنه جبان إلى حد ما ويسأل كثيرا اسئلة بلا مبرر، ويهتم جدا بالسؤال عن الزملاء المناضلين الوافدين إلى بورسعيد ولم أشك فى إخلاصه وتصورت أنه مجرد ثرثار ومحب للاستطلاع البرئ.

وفى نهايات المعركة أرسل أصدقاء لنا من الفرنسيين الذين يعارضون عدوان بلادهم علينا كشفا بأسماء الذين تستعين بهم المخابرات الفرنسية من المصريين، وكان زميلنا الثرثار هذا على رأس قائمة الجواسيس.

وكان له أخت (٢٠ سنة) نشطة متحمسة صوتها دافئ عينيها فى منتهى الجمال ، مجرد أن أراها أشعر بقواى تتجدد ،متفتحة للفهم، ممتلئة بطاقات العمل والنضال والحب والتضحية، ولم تكن تسأل على الاطلاق عن أى شيء لا يخصها وأشرفت على نشاطها ونجحت فى تشكيل لجنة نسائية وعملت فى المستشفيات والتمريض وذهبت لمواساة أهالى الضحايا الذين يتساقطون فى المعركة وكانت تتحلى بروح نادرة وانجزت أعمالا صعبة وكانت تقوم بالعمل الذى تكلف به بعناية ودقة وحماس وتقدير للمسئولية.

خلال المعركة نمت علاقة تعاطف بيننا وتجاوب، وسؤال يومى متبادل، وفى لحظات العمل والراحة كنت التقى بها ، وفى الأيام الأخيرة كنت أفكر جديا فى الارتباط بها نهائيا والزواج بعد المعركة.

ووصلنا للأسف كما تقدم من أصدقائنا في فرنسا اسماء الجواسيس المصريين الذين يتعاونون مع العدو وكانت صدمة هائلة أن أجد أخاها في مقدمة هؤلاء الجواسيس.

كان يوما حزينا، خففت من الأتصال بها، رغم تأكدي وإيماني أنها بعيدة تماما عن أي شبهة، حاولت هي كثيرا أن تعيد العلاقة إلى ما كانت عليه من حرارة وتعاطف، كنت أنزف وكان قلبي محطما. حاولت هي محاولات مضنية أن تفهم لماذا تحطم كل هذا البناء وأنهار فجأة ولماذا كنت مصرا إصراراً حادا على الأبتعاد وقطع كل صلة وكل علاقة وكل مشروع للأرتباط بها، ولم تعرف هي كم عانيت من آلام مضنية وهائلة واكتويت بهذا القرار وهذا الموقف.

بعد انسحاب الانجليز من حي العرب، اتصل بنا المحافظ وطلب عقد اجتماع مع بعض قادة الجبهة والمقاومة، ذهب الزملاء عبد المنعم شتلة وكامل جليل وسعد رحمي وأحمد رفاعي وصلاح دهب وأنا وعدد من ضباط المخابرات والصاعقة.

وفي الاجتماع قال المحافظ: ليست لدى قوات كافية للأمن وأنا أضع حي العرب تحت تصرفكم وعليكم المحافظة على الأمن هناك، والسادة المآمير ومعهم ضباطهم وجنودهم الموجودين تحت تصرفكم.

نظمنا فرقا للحراسة أثناء الليل. وكانت العقبة التي تواجهنا هي "عزبة فاروق" وهي المكان الذي يجتتمع فيه اللصوص وقطاع الطرق.

ذهبنا للعزبة، عقدنا اجتماعا مع قيادات اللصوص وعصابات

النهب الموجودة فى العزبة شرحنا لهم الموقف السياسى، والموقف داخل بورسعيد، ودور المقاومة ، وشرحنا لهم الموقف بعد خروج القوات المحتلة من حى العرب ومن نصف المدينة، وقلنا لهم أننا كنا نتهم هذه القوات ونلصق بها كل حوادث السرقة والنهب، الآن أصبح الأمر مختلف، نحن المسؤولون عن أى حادث سرقة أو نهب، وأى حادث من هذا القبيل سيصبح موجها ومهينا لشعب بورسعيد فى المحنة التى نجتازها. وجدنا منهم استجابة هائلة للكف عن أى عمل، والتوقف عن السرقة، وكنا نشعر أننا نثير فيهم أفضل ما يحمله الإنسان من قيم حتى ولو كان يحترف التدمير والسرقة ودخلنا في مناقشات .. قالوا: لماذا نسرق؟ (هو حد غاوى يبقى حرامي)، الجوع والفقر هما السبب، قال أحدهم: لدى أربع أطفال ماذا أفعل. الميناء متوقف والحالة كلها واقفة ماذا أفعل" مع ذلك اتفقنا اتفاق شرف ونفذ بحذافيره، وطوال الفترة التى أعقبت الاتفاق لم يحدث حادث واحد.

وحكى لنا زعماؤهم كيف كانت تحدث السرقات، وأن بعض الجنود الانجليز كانوا يحطمون المحلات وينقلون أغلب محتوياتها على عرباتهم ويقفون بالبضائع المنهوبة فى آخر شارع من شوارع بورسعيد وهو بجوار عزبتهم، ونخرج نحن من العزبة، ونأخذ البضائع ونبادلها بزجاجة ويسكى وبعض النقود.

قال آخر: يا أستاذ المحلات التى نهبت هى فقط محلات اليهود عمر أفندى وأركو وسمعان ومالهم حلال علينا.

وكانت عزبة فاروق هى المنطقة الوحيدة التى لم يحتلها الانجليز ولم يدخلوها طوال الوقت.

* * * .

مع اشتداد المقاومة وفشل العدوان نهائياً فى الوصول إلى أهدافه، أضطر العدو للانسحاب، وتحدد يوم الانسحاب ، وجاءت السفن لتنقلهم إلى بلادهم، وكان آخر جندى أجنبى سيغادر بورسعيد فى السادسة صباح يوم ٢٣ ديسمبر.

وكانوا يتوقعون أن تشتد المقاومة وهم ينسحبون، وتوقعوا أيضاً أننا سنحاول تدمير معداتهم العسكرية خلال عملية الانسحاب، طالبوا الحكومة بحمايتهم، هددوا المحافظ بأنهم سيضربون المدينة بالقنابل لتأمين أنسحابهم إن لم تتوقف المقاومة. وافقنا على وقف المقاومة في أيام الانسحاب.

سارت عربة بميكرفون فى شوارع المدينة وأذاعت بياناً من المحافظ وبيانا من الجبهة بوقف المقاومة ووقف أطلاق النار، وأذاعت البيانين الصحفية أمينة شفيق زوجة الفنان عبد المنعم القصاص.

كنا نعرف أن فرقة من الجيش المصرى ستدخل بورسعيد صباح يوم ٢٣ ديسمبر، أى فى نفس لحظة انسحاب آخر جندى من المعتدين.

وبدأنا نعد لمظاهرة تجمع كل شعب بورسعيد لأستقبال الجيش المصري. طبعنا عددا خاصا من مجلة الأنتصار تشيد ببطولة الجيش فى المعركة وصموده واشتراكه فى المقاومة.

وكانت هذه أول مرة يعلن فيها أن الجيش كان مشتركا فى المقاومة. أصدرنا منشورا خاصاً فى الصباح أيضاً لتأكيد دور

الجيش مع المخابرات مع الشعب فى المقاومة.

لا استطيع وصف الانسحاب، فلم أشهد خروج آخر جندى ذلك لأننى كنت مشغولا بمتابعة طبع منشوراتنا والإعداد للمظاهرة.

وأصلنا الإعداد للمظاهرة التى ستستقبل الجيش عند دخوله بورسعيد. أعددنا فرق المقاومة التى اشتركت فى المعارك اليومية وسلحناها وشارك أفراد من الصاعقة بملابسهم وخطواتهم وقفزاتهم.

واحتشد الناس وتضاعف المئات إلى الآلاف، والناس غير مصدقين أن مدينتهم بعد كل ما قاسته من أهوال قد عادت تجرى فيها الحياة، بلا أسلاك شائكة ولا حظر تجول وفتحت المحلات.

وانزاح من على صدور الناس كابوس هائل، ومشاعر النصر والبذل والتضحيات جعلت رؤوسهم مرفوعة إلى أعلي، كل فرد هنا، كل إنسان صمد وهتف وقال كلمة وألقى برصاصة أو قنبلة وتحمل الفقر والموت والجرح. كل إنسان حمل جثة أخيه وواراها التراب وسار خلف عربة كارو، كل إنسان هنا سهر وتألم وتمزق وغضب وبكى وهزم وانتصر، كل إنسان هنا عاش حياة أعرض وأغزر وأعمق ، عاش الدنيا بأسرها، عاش ما يجرى فى آسيا والهند الصينية وكوبا وأمريكا، عاش القهر والنضال، عاش الجرح والالتئام، عاش الخديعة والبسالة عاش آلاف الأفكار والمعانى وصور البطولة والانهيار والصمود والإقدام.

كل هذا كان يزحف نحو محطة السكك الحديدية حيث وصلت قوات رمزية من الجيش ومعها خالد محيي الدين وعدد من الصحفيين ورجال الإذاعة.

استقبل الجيش بالتصفيق والهتاف والأحضان ورش الزهور والملح والحلوى فوق الرؤوس ولم تكن مظاهرة، بل كان مهرجانا واسعاً عريضاً زاخرا بمعاني قهر الأزمة والأرتياح من الكابوس والنصر والاحساس الأشد بمعنى الوطن البلد مدينتنا شوارعنا ناسنا نساؤنا أطفالنا قناتنا والهتافات تدوى بها آلاف الحناجر.. عاش جمال رمز المقاومة عاشت الجبهة عاشت وحدة الشعب والجيش والحكومة عاش الاتحاد السوفيتي الصديق عاشت روسيا نصيرة الشعوب الجبهة المتحدة ضد الاستعمار ومن أجل المحافظة على الاستقلال.

وسار المهرجان المتظاهر، وسارت مظاهرة تضم الناس جميعا ،مدينة بأسرها تزف نفسها وتلقى فوقها من النوافذ والشرفات الحلوى والزهور والزغاريد، وسارت المدينة كلها الناس تضحك وتحتضن بعض وتبتسم، الفتيات الصغيرات والعجائز يرقصون داخل المظاهرة، ورجل عجوز خلع عمامته وتحزم بشال العمه وارتكز على عصاه ولوح بها ورقص، وكانت هذه إشارة المايسترو العجوز للمدينة السائرة بأسرها، أن يشيع بين خطوات السير الرقص وتصفيقة الرقص وإيقاعها والزغاريد وهز الصدور والبطون والأرداف، ورقصت شابه متفتحة للحياة مبتهجة بالنصر وبالنشوة وألقيت عليها الورود الممتزجه بصيحات الحب.

ووصل زحف المدينة الظافره المرحه الضاحكة الى مبنى متهدم قديم هو مبنى المحافظة القديمة على البلاج، وسكنت الحركة أمام أطلال المحافظة ليبدأ المؤتمر.

وبدأت الخطب والكلمات والناس مرصوصين يسمعون ما يقال

كلام كثير طويل فى ثناياه ادعاءات الفخر وادعاءات المقاومة ومحاولة جنى أى شىء والناس الكبار الحكماء الذين شربوا حكمة الدنيا واعتصروا روح الأيام الطويلة المشحونة يقفون الآن ويسمعون ويتفرجون.

كانت المنصة مسرحا.. حتى وقف على منصة المسرح أحد الشباب الصغار .. بسيط ليس له أدنى ثقل اجتماعى أو وظيفى أو مركز أو حتى أهمية من أى جانب من الجوانب، بل ليس له حتى داخل زملائه أعضاء الجبهة أى وزن غير عادي، ولا يدرى أحد من الذى اختاره لهذه اللحظة، ولكنه كان اختيارا شاهقا عبقريا، ذلك لأنه يمثل تمثيلا حقيقيا الإنسان العادى البسيط، يمثل الألوف من الواقفين، وقف، قدموه على أنه سيلقى كلمة المقاومة والجبهة، فاشتعلت الأكف والحناجر للترحيب بالشاب البسيط.

قال الشاب. إن واجباتنا اليوم هى إعادة بناء بورسعيد، وسلاحنا اليوم هو الوحدة الوطنية، وكتيبتنا هى الجبهة المتحدة، وقيادتنا التى نتمسك بها ونحافظ عليها هو الرئيس عبد الناصر.

وجاءت كلمة الشاب بعد كلام لا يمكن وصفه أو تصوره فقد تحدث عدد كبير من الموظفين الكبار ونسبوا النصر والكفاح لهم أمام الجماهير التى كافحت هى وانتصرت هي، وصبر الناس واحتملوا الكلمات والخطب، ثم تحدث خالد محيي الدين وحيا شعب بورسعيد وبطولته وقال كلاما معقولا وجيدا، ثم واصل الموظفون أكاذيبهم أمام الصحفيين وعدسات المصورين حتى

ملت المدينة الواقفة على أقدامها من التزييف والاجتراء والاستخفاف بها وبتضحياتها وصبرها وآلامها ودمها الذى أريق.

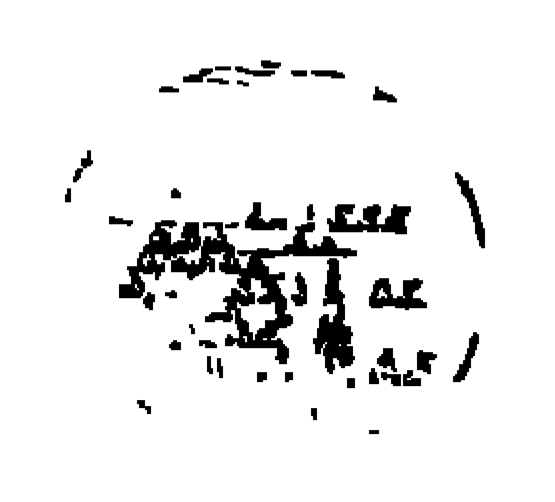
لهذا جاء كلام الشاب فى النهاية ردا لكرامة الناس الواقفة تحت وهج الشمس بل كان كلامه دون أن يقصد أو يتبادر إلى ذهنه معنى آخر نفذته الجماهير على الفور.

فأغرب ما حدث، أن كلمته قد نبهتهم أن هؤلاء الذين تكلموا قد عطلوهم بالكذب عن أخطر مهامهم اليوم، هذه الساعة، هذه اللحظة، وصلبوهم فى الشمس دون مبرر.

نبهنا الشاب وهو ينهى كلمته ويقفز من على المنصة المتهدمة إلى أهم شىء يجب أن نفعله الآن: وبدأ التصفيق الموزون على ايقاع الرقص واهتزت الأجساد العجوزة والشابة وانطلقت الزغاريد تمسح من الحناجر الصرخات والآهات وانطلق الرقص من جديد والغناء والقفز فى الهوا.

وفى اليوم التالى كان الناس يقولون لبعضهم وهم ذاهبون إلى الميناء وإلى السوق وإلى حياتهم اليومية كانوا يقولون عن الأمس. لقد عشنا أياما رهيبة لكننا فى النهاية هزمناهم وانتصرنا.

للمراسلة والتعليق على ماجاء بالكتاب
ارسل خطابك إلى : جريدة الأهالى
٢٣ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة



رقم الإيداع : ٩٧/٩٧/٢٥

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦